

التَّائِيخُ الْإِسْلَامِيّ

مَوَاقِفٌ وَمَعَبَرٌ

(١٦)

الأمويون والعباسيون والعثمانيون والدويلات المستقلة

الجزء الرابع

دكتور

عبد العزيز بن عبد الحميد

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين
بجامعة أم القرى

دار النشر

للنشر والتوزيع

جدة

دار الدعوة

للطبع والنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الخوارج
ومواقف أئمة المسلمين
وقادتهم منهم

لم يكن من منهجي في هذا الكتاب التعرض للحروب التي ثارت بين المسلمين ، لأن ذلك يسيء إلى سمعة هؤلاء المتحاربين ، والمقصود من هذا الكتاب هو إبراز مواقف المسلمين ، وتجليه العبر في تاريخهم ، ولكنني رأيت أخيراً أهمية الحديث عن مواقف الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم في معاملة الخوارج ، لأن النبي ﷺ ذكرهم وذمهم ووعد من قاتلهم بالأجر العظيم ، كما سيأتي في ذكر قتالهم مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، ولذلك كان قتالهم يحوز على ثناء علماء المسلمين ، فالحديث عن القتال معهم يعتبر إدانة لهم وإشادة بمن قاتلهم .

- الخوارج وماورد فيهم من أحاديث -

الخوارج هم كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه (١).

وبداية وجودهم في عهد رسول الله ﷺ ، وذلك حينما اعترض عليه أحدهم في قسمة الغنائم يوم حنين ، وقد أخرج خبر ذلك الشيخان من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : بينما النبي ﷺ يقسم جاء عبد الله بن ذي الخويصرة التميمي فقال : اعدل يا رسول الله ، فقال : ويلك ، ومن يعدل إذا لم أعدل؟ قال عمر بن الخطاب : دعني أضرب عنقه . قال : دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاته وصيامه مع صيامه ، يرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، يُنظر في قُدْذِهِ فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر نضيه فلا يوجد فيه شيء ، قد سبق الفرث والدم . آيتهم رجل إحدى يديه - أو قال ثديه - مثل ثدي المرأة ، أو قال : مثل البضعة تدرر . يخرجون على حين فرقة من الناس . قال أبو سعيد : أشهدُ سمعتُ من النبي ﷺ ، وأشهدُ أن علياً قتلهم وأنا معه ، جيء بالرجل على النعت الذي نعته النبي ﷺ (٢) .

وقوله « كما يمرق السهم من الرمية » معناه أن خروجهم من

(١) الملل والنحل لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ١٥٥/١ .

(٢) صحيح البخاري ، رقم ٦٩٣٣ ، كتاب استتابة المرتدين ٢٩٠/١٢ صحيح مسلم ،

رقم ١٠٦٤ ، كتاب الزكاة ص ٧٤٤ .

الإسلام يتم بسرعة كخروج السهم من الصيد المرمي بقوة وسرعة من قوة الرمي .

وقوله « ينظر في قُذْذِه » هي ريش السهم .

وقوله « ثم ينظر إلى نصله » يعني حديدة السهم .

وقوله « ثم ينظر إلى رصافه » يعني إلى مدخل النصل من

السهم .

وقوله « ثم ينظر إلى نَصِيَّه » هو السهم بلانصل ولاريش .

وقوله « سبق الفرث والدم » أي أن السهم جاوزهما ولم يعلق فيه

منهما شيء .

والمقصود هو التعبير عن سرعة خروج الخوارج من الإسلام بتشبيه

ذلك بسرعة خروج السهم من الصيد المرمي بحيث لا يعلق بأي جزء من أجزائه شيء منه .

وفي حديث آخر أخرجه الشيخان أن النبي ﷺ قال في وصفهم :

« يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يقتلون أهل الإسلام ويدعون

أهل الأوثان ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، لئن أنا

أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد » (١) .

وفي رواية لمسلم « يتلون كتاب الله لينّا رطباً » (٢) .

(١) صحيح مسلم ، رقم ١٠٦٤ / ١٤٣ ، الزكاة (ص ٧٤١ - ٧٤٢) .

صحيح البخاري ، رقم ٣٣٤٤ ، الأنبياء (٣٧٦ / ٦) .

(٢) صحيح مسلم ، رقم ١٠٦٤ / ١٤٥ ، الزكاة (ص ٧٤٣) .

وجاء في حديث آخر أخرجه الشيخان « سيخرج قوم في آخر الزمان أحداث الأسنان سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة » (١).

وجاء في رواية لمسلم « يخرجون في فرقة من الناس، سيماهم التحالق ، هم شر الخلق - أو من أشر الخلق - يقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق » .

وفي رواية أخرى لمسلم « يَتِيهِ قَوْمٌ قَبْلَ الْمَشْرِقِ، مُحَلَّقَةٌ رُؤُوسُهُمْ » (٢) .

ففي هذه الأحاديث بيان شيء من صفات الخوارج ، فمن ذلك أنهم يشتهرون بكثرة التعبد بالشعائر التعبدية كالصلاة والصيام، وأن الصحابة رضي الله عنهم على كثرة تعبدهم يحقرون صلاتهم مع صلاتهم وصيامهم مع صيامهم .

ومنها أنهم من قراء كتاب الله تعالى وأنهم يحسنون أداءه، ويحسنون أصواتهم به ، ولكنهم لا يتأثرون به في قلوبهم ولا يؤثر على سلوكهم .

(١) صحيح البخاري ، رقم ٦٩٣٠ ، ٦٩٣٤ ، كتاب استتابة المرتدين (١٢/٢٨٣ ، ٢٩٠) .

صحيح مسلم رقم ١٠٦٦/١٥٤ ، الزكاة ، (ص ٧٤٦ - ٧٤٧) .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الزكاة رقم ١٤٩ ، ١٦٠ (ص ٧٤٥ ، ٧٥٠) .

ومنها أنهم من صغار السن وأنهم سفهاء العقول لا يفكرون تفكيراً سليماً .

ومنها أنهم ينطقون بالكلام الحسن الذي يجذب انتباه الناس ولكنهم يسيئون الأفعال، وذلك من قول رسول الله ﷺ عنهم «يقولون من خير قول البرية» قال الحافظ ابن حجر: تقدم قول من قال إنه مقلوب وأن المراد من قول خير البرية وهو القرآن، قال قلت: ويحتمل أن يكون على ظاهره» والمراد القول الحسن في الظاهر وباطنه على خلاف ذلك، كقولهم «لاحكم إلا لله»، قال: وفي حديث أنس عن أبي سعيد عند أبي داود والطبراني «يحسنون القول وسيئون الفعل» (١).

ومنها أنهم يكثر من الأقوال التي ظاهرها الإيمان ، ولكن قلوبهم بخلاف ذلك « لا يجاوز إيمانهم حناجرهم » .

ومنها أنهم يحلقون رؤوسهم على الدوام على خلاف المعتاد من حياة الناس في ذلك الزمن .

ومنها أنهم يعاملون من خالفهم من المسلمين بعنف وقسوة، ويستحلون دماءهم وأموالهم ، بينما يعاملون الكفار من أهل الذمة بلين ولطف ، ويتورعون عن دمائهم وأموالهم .

مواقف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من الخوارج :

كان أول ظهور الخوارج بشكل جماعي في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وذلك بعد معركة صفين حينما دعا أصحاب معاوية رضي الله عنه إلى إيقاف القتال والتحاكم إلى

(١) فتح الباري ٢/ ٢٨٧ .

كتاب الله تعالى ، فكَرِهَ ذلك علي رضي الله عنه لأنه كان قد أوشك على النصر وقَبِلَ ذلك فرقة من جيشه وألزموه بإيقاف القتال وقبول التحكيم ، ثم إن طائفة من هؤلاء غيروا رأيهم واعتبروا أن التحكيم كفر وأن من قبل ذلك فقد كفر ، ثم أظهروا توبتهم من ذلك الكفر ورفضوا قبول التحكيم ، وخرجوا على علي رضي الله عنه .

وقد وردت في ذلك أخبار منها ما أخرجه المؤرخ أحمد بن يحيى البلاذري من خبر الإمام الشعبي قال : لما اجتمع علي ومعاوية على أن يُحْكَمَا رجلين اختلف الناس على علي فكان عظمهم وجمهورهم مقرين بالتحكيم راضين به ، وكانت فرقة منهم - وهم زهاء أربعة آلاف من ذوي بصائرهم والعباد منهم - منكرة للحكومة ، وكانت فرقة منهم وهم قليل متوقفين ، فأتت الفرقة المنكرة علياً فقالوا : عد إلى الحرب - وكان علي يحب ذلك - فقال الذين رضوا بالتحكيم : والله مادعانا القوم إلا إلى حق وإنصاف وعدل ، وكان الأشعث بن قيس وأهل اليمن أشدهم مخالفة لمن دعا إلى الحرب ، فقال علي للذين دعوا إلى الحرب : يا قوم قد ترون خلاف أصحابكم وأنت قليل في كثير ، ولئن عدتم إلى الحرب ليكوننَّ أشدَّ عليكم من أهل الشام ، فإذا اجتمعوا وأهل الشام عليكم أفنوكم ، والله مارضيت ماكان ولاهويته ، ولكني ملت إلى الجمهور منكم خوفاً عليكم . ثم أنشد :
وما أنا إلا من غُزِيَّةٍ إن غَوَتْ غويت وإن ترشد غزية أرشد

ففارقوه ومضى بعضهم إلى الكوفة قبل كتاب القضية ، و أقام الباقون معه على إنكارهم التحكيم ناقلين عليه يقولون : لعلّه يتوب

ويراجع ، فلما كُتبت القضية (١) خرج بها الأشعث فقال عروة بن حدير: يا أشعث ماهذه الدنية ؟ أشرط أوثق من شرط الله ؟ واعترضه بسيف فضرب عجز بغلته وحكم (٢) فغضب للأشعث أهل اليمن حتى مشى الأحنف ، وجارية بن قدامة ، ومعقل بن قيس ، وشيث بن ربعي ، ووجوه تميم إليهم فرضوا وصفحوا (٣) .

وأخرج أيضا من خبر الإمام الزهري قال: لما قدم علي بن أبي طالب إلى الكوفة من صفين خاضته الحرورية ستة أشهر وقالوا: شككت في أمرك وحكمت عدوك ووهنت في الجهاد، وتأولوا عليه القرآن فقالوا: قال الله: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ (٤) الآية: وطالت خصومتهم لعلي ، ثم زالوا براياتهم وهم خمسة آلاف عليهم ابن الكواء ، فأرسل إليهم علي عبد الله بن عباس وصعصعة بن صوحان فدعواهم إلى الجماعة وناشدهم فأبوا عليهما ، فلما رأى ذلك علي أرسل إليهم إنا نوادعكم إلى مدة نتدارس فيها كتاب الله لعلنا نصطرح ، وقال لهم: أبرزوا منكم اثني عشر نقيبا ، وأبعث منا مثلهم ونجتمع بمكان كذا فيقوم خطبائنا بحججنا وخطباؤكم بحججكم . ففعلوا ورجعوا فقام علي فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد فإنني لم أكن أحرصكم على هذه القضية وعلى التحكيم ولكنكم وهنتم في القتال ، وتفرقتم علي وخصمني القوم بالقرآن

(١) أي قضية الصلح بين علي ومعاوية رضي الله عنهما بتحكيم الحكيم .

(٢) يعني قال : لاحكم إلا لله .

(٣) أنساب الأشراف ١١٢/٣ .

(٤) سورة غافر الآية (٢٠) .

ودَعُونَا إِلَيْهِ ، فَخَشِيتُ إِنَّ أَبَيْتَ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحُكْمِ ، أَنْ يَتَأُولُوا عَلَيَّ قَوْلَ اللَّهِ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ (١) الْآيَةِ : وَيَتَأُولُوا قَوْلَهُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ (٢) وَيَتَأُولُوا قَوْلَهُ : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يَرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ (٣) الْآيَةِ فَلَمْ أَبْ عَلَيْهِمُ التَّحَاكُمَ ، وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولُوا : فَرَضَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الْحُكُومَةَ فِي أَصْغَرِ الْأُمُورِ فَكَيْفَ الْأُمُورِ الَّذِي فِيهِ سَفْكُ الدَّمَاءِ ، وَقَطْعُ الْأَرْحَامِ وَانْتِهَاكُ الْحَرِيمِ ، وَخَفْتُ وَهَنْكُمْ وَتَفَرُّقَكُمْ .

ثم قامت خطباء الحرورية ، فقالوا : دعوتنا إلى كتاب الله والعمل به فأجبناك وباعيناك وقد قُتِلْتُ في طاعتك قتلانا يوم الجمل وصفين ، ثم شككت في أمر الله وحكمت عدوك ، ونحن على أمرك الذي تركت ، وأنت اليوم على غيره ، فليسنا منك إلا أن تتوب منه وتشهد على نفسك بالضلالة . فلما فرغوا من قولهم : قال علي :

أما أن أشهد على نفسي بالضلالة فمعاذ الله أن أكون ارتبت منذ

(١) سورة آل عمران الآية (٢٣) .

(٢) سورة المائدة الآية (٩٥) .

(٣) سورة النساء الآية (٣٥) .

أسلمت، أو ضللت منذ اهتديت، بل بنا هداكم الله من الضلالة، واستنقذكم من الكفر، وعصمكم من الجهالة، وإنما حكمت الحكمين بكتاب الله والسنة الجامعة غير المفرقة ، فإن حكما بكتاب الله كنت أولى بالأمر في حكمهما ، وإن حكما بغير ذلك لم يكن لهما علي وعليكم حكم .

ثم تفرقوا فأعاد إليهم عبد الله بن عباس وصعصة فقال لهم صعصة : أذكركم الله أن تجعلوا فتنة العام مخافة فتنة عام قابل ، فقال ابن الكواء : أستم تعلمون أنني دعوتكم إلى هذا الأمر؟ فقالوا: بلى . قال : فإني أول من أطاع هذا الرجل فإنه واعظ شفيق . فخرج معه منهم نحو من خمسمائة فدخلوا في جملة علي وجماعته ، وبقي منهم نحو من خمسة آلاف فقال علي : اتركوهم حتى يأخذوا ، ويسفكوا دمًا حراما ففعل ذلك .

وأخرج أيضا من خبر الصلت بن بهرام قال : لما قدم علي الكوفة من صفين جعل يخطب الناس وجعلت الخوارج تقول - وهو على المنبر - : قَبِلَتِ الدِّينَةَ بِالْقَضِيَّةِ ^(١) ، وجزعت عن البلية لاحكم إلا لله . فيقول : حَكَمَ اللَّهُ أَنْتَظِرْ فِيكُمْ . فيقولون : ﴿ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ^(٢) ، فيقول علي : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ ^(٣) .

(١) يعني حينما رضيت بالتحكيم .

(٢) سورة الزمر الآية (٦٥) .

(٣) سور الروم (٦٠) .

وأخرج أيضا من خبر الإمام الزهري قال: أنكرت الحكومة على علي طائفة من أصحابه قدمت إلى بلدانها من صفين، وانحاز منهم اثنا عشر ألفاً - ويقال ستة آلاف - إلى موضع يقال له: حروراء بناحية الكوفة فبعث إليهم علي ابن عباس وصعصعة، فوعظهم صعصعة. وحاجهم ابن عباس فرجع منهم ألفان وبقي الآخرون على حالهم حينئذ، ثم دخلوا الكوفة، فلما انقضت المدة في القضية وأراد علي توجيه أبي موسى أتاه حرقوص بن زهير التميمي وزيد بن حصين الطائي وزرعة بن البرج الطائي في جماعة من الحرورية، فقالوا: اتق الله وسر إلى عدوك وعدونا، وتب إلى الله من الخطيئة، وارجع عن القضية، فقال علي: أما عدوكم فإني أردتكم على قتالهم وأنتم في دارهم فتواكلتم ووهنتم وأصابكم ألم الجراح فجزعتم وعصيتُموني، وأما القضية فليست بذنب ولكنها تقصير وعجز أتيتُموه وأنا له كاره، وأنا استغفر الله من كل ذنب. فقال له زرعة: والله لئن لم تدع التحكيم في أمر الله لأجاهدك، فقال له علي: بؤساً لك ما أشقاك، كأني أنظر إليك غداً صريعاً تسفي عليك الرياح، قال: وددتُ ذلك قد كان، فانصرفوا وهم يظهرون التحكيم^(١) ويدخلون الكوفة، فإذا صلى علي وخطب حَكَمُوا، فيقول علي: كلمة الحق يُعْتزى بها باطل.

وبلغ يزيد بن عاصم المحاربي قول علي لزراعة بن البرج، فأثابه فقال: يا علي أتخوفنا بالقتل، إنا لنرجو أن نضربكم بها عن قليل غير

(١) أي يقولون لاحكم إلا لله.

مصنفات (١) ، ثم تعلم أينما أولى بها صلياً ، اللهم إنا نعوذ بك من إعطاء الدنيا في دينك فإنها إدهان وذل (٢) .

وأخرج الإمام الطبري نحو ذلك في عدة أخبار ، وقد جاء في خبر عبد الملك بن أبي حرة الحنفي أن علياً رضي الله عنه خرج ذات يوم يخطب ، وإنه لفي خطبته إذ حكمت المحكمة (٣) في جوانب المسجد فقال علي : الله أكبر ، كلمه حق يراد بها باطل ، إن سكتوا غممناهم ، وإن تكلموا حججناهم ، وإن خرجوا علينا قاتلناهم ، فوثب يزيد بن عاصم المحاربي فقال : الحمد لله غير مودع ربنا ولا مُستغنى عنه ، اللهم إنا نعوذ بك من إعطاء الدنيا في ديننا ، فإن إعطاء الدنيا في الدين إدهان في أمر الله عز وجل وذل راجع بأهله إلى سخط الله .

وفي خبر آخر عن كثير بن بهز الحضرمي ، قال : قام علي في الناس يخطبهم ذات يوم ، فقال رجلٌ من جانب المسجد : لا حكم إلا لله ، فقام آخر فقال مثل ذلك ، ثم توالى عدة رجال يُحكّمون ، فقال علي : الله أكبر ، كلمة حق يُلمس بها باطل ! أما إن لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتونا : لا تمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه ، ولا تمنعكم الفئء ما دامت أيديكم مع أيدينا ، ولا نقاتلكم حتى تبدءونا ، ثم رجع إلى مكانه الذي كان فيه من خطبته (٤) .

(١) يعني نصريكم بحد السيوف .

(٢) أنساب الأشراف ١٢٦/٣ - ١٣٠ .

(٣) يعني قال الخوارج لا حكم إلا لله .

(٤) تاريخ الطبري ٦٤/٥ - ٧٣ .

بعث ابن عباس لمخاورتهم :

هذا وقد أرسل إليهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهم ليجادلهم بالحكمة ويدعوهم بالتبلي هي أحسن ، وقد ورد الخبر عن ذلك من عدة طرق ، منها ما أخرجه الإمام عبد الرزاق الصنعاني من خبر أبي رُميل سماك الحنفي قال : حدثنا عبد الله بن عباس قال : لما اعتزلت الحرورية فكانوا في دارٍ على حدّتهم قلت لعليّ : يا أمير المؤمنين ! أبرد عن الصلاة لعليّ آتي هؤلاء القوم فأكلّمهم ، قال : إني أتخوفهم عليك ، قلت : كلاّ إن شاء الله تعالى ، قال : فلبست أحسن ما أقدر عليه من هذه اليمانية ، قال : ثم دخلت عليهم وهم قائلون في نحر الظهيرة ، قال : فدخلت على قوم لم أرَ قومًا قطُّ أشدَّ اجتهادًا منهم ، أيديهم كأنها ثفن الإبل ، ووجوههم معلّمة من آثار السجود ، قال : فدخلت ، فقالوا : مرحبًا بك يا ابن عباس ! ما جاء بك ؟ قلت : جئت أحدثكم عن أصحاب رسول الله ﷺ ، عليهم نزل الوحي ، وهم أعلم بتأويله ، فقال بعضهم : لا تحدّثوه ، وقال بعضهم : والله لنحدّثه ، قال : قلت : أخبروني ماتنقمون على ابن عمّ رسول الله ﷺ وختنه ، وأوّل من آمن به ؟ وأصحاب رسول الله ﷺ معه ؟ قالوا : ننقم عليه ثلاثًا ، وقد قال : قلت : وما هنّ ؟ قالوا : أولهنّ أنّه حكّم الرجال في دين الله ، وقد قال الله : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ لِلَّهِ ﴾ (١) ، قال : قلت : وماذا ؟ قالوا : وقاتل ولم يسب ، ولم يغنم ، لأن كانوا كفارًا لقد حلّت له أموالهم ، ولئن كانوا مؤمنين لقد حرمت عليه دماؤهم ، قال : قلت :

(١) سورة الأنعام الآية (٥٧) ، وسورة يوسف الآية (٤٠) والآية (٦٧) .

وماذا ؟ قالوا : محا نفسه من أمير المؤمنين ، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين ، قال : قلت : رأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله المحكم ، وحدتكم من سنة نبيه ﷺ ما لا تنكرون ، أترجعون ؟ قالوا : نعم ، قال : قلت : أما قولكم : حكم الرجال في دين الله ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ (١) وقال في المرأة وزوجها : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعُثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا ﴾ (٢) أنشدكم الله أحكم الرجال في حقن دمائهم وأنفسهم ، وإصلاح ذات بينهم أحق أم في أرب ثمنها ربع درهم ؟ قالوا : اللهم بل في حقن دمائهم ، وإصلاح ذات بينهم ، قال : أخرجت من هذه ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : وأما قولكم : إنه قاتل ولم يسب ولم يغنم ، أتسبون أمكم عائشة ؟ أم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها ، فقد كفرتم ، وإن زعمتم أنها ليست أم المؤمنين فقد كفرتم وخرجتم من الإسلام ، إن الله يقول : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ (٣) فأنتم مترددون بين ضلالتين ، فاختراروا أيتهما شئتم ، أخرجت من هذه ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : وأما قولكم : محا نفسه من أمير المؤمنين ، فإن رسول الله ﷺ دعا قريشا يوم الحديبية على أن يكتب بينه وبينهم كتابًا ، فقال : اكتب : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ، فقالوا :

(١) سورة المائدة الآية (٩٥) .

(٢) سورة النساء الآية (٣٥) .

(٣) سورة الأحزاب الآية (٦) .

والله لو كُنَّا نعلم أنك رسول الله ما صدناك عن البيت ، ولا قاتلناك ،
ولكن اكتب محمد بن عبد الله ، فقال : والله إني لرسول الله حقًا
وإن كذبتُموني . اكتب يا عليُّ ! محمد بن عبد الله ، فرسول الله ﷺ
كان أفضل من علي رضي الله عنه ، أخرجتُ من هذه ؟ قالوا : اللهم
نعم ، فرجع منهم عشرون ألفًا ، وبقي منهم أربعة آلاف ، فقتلوا (١) .

وذكر الحافظ الهيثمي أن الإمام الطبراني رواه وأن الإمام أحمد
روى بعضه قال : ورجالهما رجال الصحيح (٢) .

وأخرجه الحافظ البيهقي وذكر نحوه وفيه : فرجع من القوم ألفان
وقُتل سائرهم على ضلالة (٣) .

وما جاء في هذا الخبر من أن عددهم أربعة وعشرون ألفا فيه مبالغة
والصواب ما جاء في الروايات الأخرى من أنهم كانوا أربعة آلاف ثم
زادوا حتى صاروا ستة آلاف أو ثمانية آلاف على اختلاف الروايات .

جرمهم بقتل المسلمين الأمنين :

أخرج البلاذري من خبر أبي مجلز : أن عليًّا رضي الله عنه نهى
أصحابه أن يسطوا على الخوارج حتى يحدثوا حدثًا .

قال : وكان الخوارج الذين قدموا من البصرة مع مسعر بن فذكي
استعرضوا الناس في طريقهم ، فلإذا هم برجل يسوق بامرأته على
حمار له ، فدعوه وانتهروه ورعبوه وقالوا له : من أنت ؟ فقال :

(١) مصنف عبد الرزاق ١٥٧/١٠ - ١٦٠ رقم ١٨٦٧٨ .

(٢) مجمع الزوائد ٢٣٩/٦ - ٢٤١ .

(٣) سنن البيهقي ١٨٠/٨ .

رجل مؤمن قالوا : فما اسمك ؟ قال : أنا عبد الله بن خباب بن الأرت صاحب رسول الله ﷺ . فكفوا عنه ، ثم قالوا له : ماتقول في علي ؟ قال : أقول : إنه أمير المؤمنين ، وإمام المسلمين ، وقد حدثني أبي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ستكون فتنة يموت فيها قلب الرجل فيصبح مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً » . فقالوا : والله لنقتلنك قتلة مائتاتها أحد ، وأخذوه فكثفوه ثم أقبلوا به وبامراته وهي جلى مئتم حتى نزلوا تحت نخل مواقير فسقطت رطبة منها فقتلها بعضهم في فيه ، فقال له رجل منهم : أبغير حلها ولاثمن لها ؟ فآلقاها من فيه واختلط سيفه وجعل يهزه فمر به خنزير للذمي فقتله بسيفه ، فقال له بعض أصحابه : إن هذا لمن الفساد في الأرض . فطلب صاحب الخنزير حتى أرضاه ، فقال ابن خباب : لئن كنتم صادقين فيما أرى وأسمع إني لآمن من شركم . قال : فجاؤوا به فأضجعوه على شفير نهر وألقوه على الخنزير المقتول فذبحوه عليه ، فصار دمه مثل الشراك قد امدقر^(١) في الماء ، وأخذوا امرأته فبقروا بطنها وهي تقول : أما تتقون الله ؟ وقتلوا ثلاث نسوة كن معها .

فبلغ علياً خبر ابن خباب وامراته والنسوة ، وخبر سوادي لقوه بنقر فقتلوه ، فبعث علي إليهم ابن الحارث بن مرة العبدى ليتعرف حقيقة مابلغه عنهم ، فلما أتى النهروان وقرب منهم خرجوا إليه فقتلوه ، وبلغ ذلك علياً ومن معه ، فقالوا له : ماتركنا هؤلاء وراءنا يخلفونا في أموالنا وعيالاتنا بما نكره ؟ سر بنا إليهم فإذا فرغنا منهم

(١) أي لم يختلط بالماء .

سرنا إلى عدونا من أهل المغرب^(١)، فإن هؤلاء أحضر عداوة وأنكى حداً.

وقال : وقام الأشعث بن قيس فكلمه بمثل ذلك فنادى عليّ بالرحيل^(٢).

وقد أخرج الخطيب البغدادي خبر قتلهم عبد الله بن خباب بنحو ذلك^(٣).

وأخرج البلاذري من خبر حميد بن هلال عن رجل من عبد القيس كان مع الخوارج ثم فارقهم قال : وأتى عليّ المدائن وقد قدمها قيس بن سعد بن عباد ، وكان عليّ قدّمه إليها . ثم أتى عليّ النهروان فبعث إلى الخوارج : أن أسلموا لنا قتلة ابن خباب ورسولي والنسوة لأقتلهم ثم أنا تارككم إلى فراغي من أمر أهل المغرب فلعل الله يقبل بقلوبكم ويردكم إلى ما هو خير لكم وأملك بكم . فبعثوا إليه أنه ليس بيننا وبينك إلا السيف إلا أن تقرّ بالكفر وتتوب كما تبنا فقال عليّ : أبعد جهادٍ مع رسول الله ﷺ وإيماني أشهد على نفسي بالكفر؟ ﴿ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾^(٤) ثم قال :

يا شاهداً لله عليّ فاشهد آمنت بالله وليّ أحمد

من شك في الله فإنني مهتد

(١) يعني أهل الشام ، وكانوا يسمون الشام المغرب .

(٢) أنساب الأشراف ١/ ١٤٢ - ١٤٣ .

(٣) تاريخ بغداد ١/ ٢٠٥ .

(٤) سورة الأنعام الآية (٥٦) .

وكتب إليهم : « أما بعد فإنني أذكركم أن تكونوا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً بعد أن أخذ الله ميثاقكم على الجماعة، وألف بين قلوبكم على الطاعة، وأن ﴿ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ (١). ودعاهم إلى تقوى الله والبرِّ ومراجعة الحق، فكتب إليه ابن وهب الراسبي ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (٢) إن الله بعث محمداً بالحق وتكفل له بالنصر كما بلغ رسالاته ، ثم توفاه إلى رحمته ، وقام بالأمر بعده أبو بكر بما قد شهدته وعاينته متمسكاً بدين الله مؤثراً لرضاه حتى أتاه أمر ربه ، فاستخلف عمر ، فكان من سيرته ما أنت عالم به ، لم تأخذه في الله لومة لائم ، وختم الله له بالشهادة، وكان من أمر عثمان ما كان حتى سار إليه قوم قتلوه لما أثر الهوى وغير حكم الله ، ثم استخلفك الله على عباده فبايعك المؤمنون وكنت لذلك عندهم أهلاً ، لقرابتك بالرسول ، وقَدَمَك في الإسلام ، ووردتَ صفين غير مدهن ولا وان ، مبتذلاً نفسك في مرضاة ربك فلما حَمِيت الحرب وذهب الصالحون : عمار بن ياسر ، وأبو الهيثم بن التَّيَّهَان ، وأشباههم اشتمل عليك من لافقه له في الدين ولا رغبة في الجهاد، مثل الأشعث ابن قيس وأصحابه واستنزلك حتى ركنت إلى الدنيا، حين رُفِعت لك المصاحف مكيدة فتسارع إليهم الذين استنزلك ، وكانت منا في ذلك هفوة ثم تداركنا الله منه برحمته ، فحكمتَ في كتاب الله وفي نفسك، فكنت في شك من دينك وضلال عدوك وبغيه عليك، كلا

(١) سورة آل عمران الآية (١٠٥) .

(٢) سورة الرعد الآية (١١) .

وَاللّٰهُ يَابْنَ أَبِي طَالِبٍ ، وَلَكِنَّكُمْ ﴿ظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا
بُورًا﴾ (١) وَقُلْتُ لِي قَرَابَةٌ مِنَ الرَّسُولِ وَسَابِقَةٌ فِي الدِّينِ فَلَا يَعْدُلُ
النَّاسُ بِي مَعَاوِيَةَ ، فَلَا أَنْ فَتَبَ إِلَى اللَّهِ وَأَقْرَبَ بِذَنْبِكَ ، فَإِنْ تَفَعَّلَ نَكُنْ
يَدُكَ عَلَى عَدُوِّكَ ، وَإِنْ أَبَيْتَ ذَلِكَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ .

قالوا : وخرج إليهم قيس بن سعد بن عبادة فناداهم فقال : يا عبادة
الله أخرجوا إلينا طلبتنا وانهضوا إلى عدوكم وعدونا معًا . فقال له :
عبد الله بن شجرة السلمي : إن الحق قد أضاء لنا فلسنا متابعيكم أبدًا
أو تأتونا بمثل عمر . فقال : والله مانعلم على الأرض مثل عمر إلا أن
يكون صاحبنا ، وقال : لهم علي : « يا قوم إنه قد غلب عليكم
اللجاج والمراء واتبعتم أهواءكم فطمح بكم تزيين الشيطان لكم وأنا
أذكركم أن تصبحوا صرعى بأهضام هذا الغائط وأثناء هذا النهر » .

فلم يزل يعظهم ويدعوهم فلما لم ير عندهم انقيادًا - وكان في
أربعة عشر ألفًا - عبًا الناس فجعل على ميمنته حجر بن عدي الكندي
وعلى ميسرته شيبث بن ربعي وعلى الخيل أبا أيوب خالد بن زيد
الأنصاري ، وعلى الرجال أبا قتادة الأنصاري - واسمه النعمان بن
ربعي بن بلدمة الخزرجي - وعلى أهل المدينة وهم سبعمائة - أو
ثمانمائة - قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري .

ثم بسط لهم عليّ الأمان ودعاهم إلى الطاعة ، فقال فروة بن
نوفل الأشجعي : والله ماندرى على مانقاتل عليًا ؟ فانصرف في
خمسماية فارس حتى نزل البنديجين (٢) والدسكرة ، وخرجت طائفة
(١) سورة الفتح الآية (١٢) .

(٢) بلدة في طرف النهروان - معجم البلدان - .

منهم أخرى متفرقين إلى الكوفة، وأتى مسعر بن فدكي التميمي راية أبي أيوب الأنصاري في ألف، واعتزل عبد الله بن الحوساء - ويقال: ابن أبي الحوساء الطائي - في ثلاثمائة وخرج إلى عليّ منهم ثلاثمائة فأقاموا معه ، وكانوا أربعة آلاف فارس ومعهم خلق من الرجال. واعتزل حوثة بن وداع في ثلاثمائة ، واعتزل أبو مريم السعدي في مائتين، واعتزل غيرهم ، حتى صار مع ابن وهب الراسبي ألف وثلاثمائة فارس ، ورجاله يقال : إنهم ألف وخمسمائة .

وقال علي لأصحابه : كفوا عنهم حتى يبدأوكم. ونادى جمرة بن سنان: روحوا إلى الجنة ، فقال ابن وهب : والله ماندرني أنروح إلى الجنة أم إلى النار وتنادى الحرورية : الرواح إلى الجنة معاشر المختبين وأصحاب البرانس المصلين، فَشَدُّوا على أصحاب عليّ شدة واحدة، فانفرت خيل عليّ مُتَفَرِّقِينَ : فرقة نحو الميمنة وفرقة نحو الميسرة. وأقبلوا نحو الرجال فاستقبلت الرماة وجوههم بالنبل حتى كأنهم معزى تتقى المطر بقرونها ، ثم عطفت الخيل عليهم من الميمنة والميسرة، ونهض عليّ إليهم من القلب بالرماح والسيوف فما لبثوا أن أهدموا في ساعة (١) .

خبر ذي الثدية ومعجزة لرسول الله ﷺ :

أخبر النبي ﷺ عن صفة الخوارج الذين يخرجون على جماعة المسلمين ، وأخبر عن رجل فيهم في عضده مثل الشدي، وقد وُجد في

(١) أنساب الأشراف ١/١٤٤ - ١٤٧ ، وانظر تاريخ الطبري ٥/٨١ - ٨٧ ، البداية والنهاية ٧/٢٩٥ - ٢٩٨ ، الفتح الرباني ٢٣/١٥٤ - ١٥٩ ، تاريخ بغداد ١/٢٠٥ .

هذه الفرقة من الخوارج الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه كما أخبر عنه رسول الله ﷺ ، ومما جاء في خبره ما أخرجه الإمام مسلم من حديث سلمة بن كهيل : حدثني زيد ابن وهب الجهني ، أنه كان في الجيش الذين كانوا مع علي رضي الله عنه الذين ساروا إلى الخوارج . فقال علي رضي الله عنه : أيها الناس ! إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول « يخرج قومٌ من أمتي يقرأون القرآن . ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء . ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء . ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء . يقرأون القرآن . يحسبون أنه لهم وهو عليهم . لا تجاوز صلاتهم تراقيهم . يرقون من الإسلام كما يرق السهم من الرمية » . لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ، ما قضي لهم على لسان نبيهم ﷺ ، لا تكلوا عن العمل . وآية ذلك أن فيهم رجلا له عضدٌ . وليس له ذراعٌ . على رأس عضده مثل حلمة الثدي . عليه شعراتٌ بيضٌ . فتذهبون إلى معاوية وأهل الشام وتركون هؤلاء يخلفونكم في ذرائكم وأموالكم ! والله إني لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم فإنهم قد سفكوا الدم الحرام . وأغاروا في سرح الناس (١) . فسيروا على اسم الله .

قال سلمة بن كهيل : فنزلني زيد بن وهب منزلاً (٢) . حتى قال :

(١) (وأغاروا في سرح الناس) السرح الماشية . أي أغاروا على مواشيهم التي ترعى .

(٢) (فنزلني زيد بن وهب منزلاً) هكذا هو في معظم النسخ : منزلاً ، مرة واحدة . وفي نادر منها : منزلاً منزلاً ، مرتين . وهو وجه الكلام . أي ذكر لي مراحلهم بالجيش منزلاً منزلاً حتى بلغ القنطرة التي كان القتال عندها ، وهذا هو الموافق لرواية عبيد الرقاق من حديث سلمة بن كهيل نفسه - المصنف رقم ١٨٦٥٠ (١٠ / ١٤٧) .

مررنا على قنطرة . فلما التقينا وعلى الخوارج يومئذ عبد الله بن وهب الراسبي . فقال لهم : ألقوا الرماح . وسلُّوا سيوفكم من جفونها . فإني أخاف أن يناشدوكم كما ناشدوكم يوم حروراء . فرجعوا فوحشوا برماحهم (١) . وسلُّوا السيوف . وشجرهم الناس برماحهم (٢) . قال : وقتل بعضهم على بعض . وما أصيب من الناس يومئذ إلا رجلان . فقال علي رضي الله عنه : التمسوا فيهم المخدج . فالتمسوه فلم يجدوه . فقام علي رضي الله عنه بنفسه حتى أتى ناساً قد قتل بعضهم على بعض . قال : أخروهم . فوجدوه مما يلي الأرض . فكبر . ثم قال : صدق الله . وبلغ رسوله . قال : فقام إليه عبيدة السلماني . فقال : يا أمير المؤمنين الله الذي لا إله إلا هو لسمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ ؟ فقال : إي . والله الذي لا إله إلا هو ! حتى استحلفه ثلاثاً (٣) . وهو يحلف له .

وأخرج الإمام مسلم أيضا من حديث عبيد الله بن أبي رافع ، مولى رسول الله ﷺ ، أن الحرورية لما خرجت ، وهو مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، قالوا : لا حكم إلا لله . قال علي : كلمة حق أريد بها باطل . إن رسول الله ﷺ وصف ناساً ، إني لأعرف صفتهم في هؤلاء ، « يقولون الحق بألسنتهم لا يجوز هذا منهم » وأشار

(١) (فوحشوا برماحهم) أي رموا بها عن بعد منهم .

(٢) (وشجرهم الناس برماحهم) أي مدوها إليهم وطاعنهم بها .

(٣) (حتى استحلفه ثلاثاً) قال الإمام النووي : وإنما استحلفه ليُسمع الحاضرين ويؤكد

ذلك عندهم ويظهر لهم المعجزة التي أنجز بها رسول الله ﷺ ويظهر لهم أن عليا

وأصحابه أولى الطائفتين بالحق ، وأنهم محقون في قتالهم ،

إلى حلقه « من أبغض خلق الله إليه منهم أسودٌ إحدى يديه طبي شاة^(١) أو حلمة ثدي ». فلما قتلهم عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : انظروا . فنظروا فلم يجدوا شيئا . فقال : ارجعوا . فوالله ! ما كذبت ولا كُذبت . مرتين أو ثلاثا . ثم وجدوه في خربة . فأتوا به حتى وضعوه بين يديه . قال عبيد الله : وأنا حاضر ذلك من أمرهم وقول عليٍّ فيهم .

زاد يونس في روايته : قال بُكيرٌ : وحدثني رجل عن ابن حنين أنه قال : رأيتُ ذلك الأسود .

كما أخرج أيضا من حديث عبيدة السلماني ، عن علي رضي الله عنه قال : ذكر الخوارج فقال : فيهم رجل مخدج اليد ، أو مُودَنُ اليد^(٢) ، لولا أن تبطروا^(٣) لحدثتكم بما وعد الله الذين يقتلونهم على لسان محمد ﷺ . قال قلتُ : أنت سمعته من محمد ﷺ ؟ قال : إي . وربُّ الكعبة ! إي . وربُّ الكعبة ! إي . وربُّ الكعبة^(٤) .

وأخرج الإمام محمد بن جرير الطبري من خبر عبد الملك بن أبي حرة ، أن عليًا خرج في طلب ذي الشديدة ومعه سليمان بن ثمامة الحنفي أبو جبرة ، والريان بن صبرة ابن هوزة ، فوجده الريان بن

(١) (إحدى يديه طبي شاة) المراد به ضرع الشاة . وهو فيها مجار واستعارة . وإنما أصله للكلبة والسباع .

(٢) (مخدج اليد أو مودن اليد أو مثدون اليد) مخدج اليد أي ناقص اليد . ومودن اليد ناقص اليد . ومثدون اليد صغير اليد مجتمعها .

(٣) (لولا أن تبطروا) البطروا هنا : التجبر والغرور .

(٤) صحيح مسلم رقم ١٠٦٦ ، الزكاة (ص ٧٤٧ - ٧٤٩) .

صبرة بن هوزة في حفرة على شاطئ النهر في أربعين أو خمسين قتيلاً. قال: فلما استخرج نظر إلى عضده، فإذا لحم مجتمع على منكبه كثدي المرأة، له حلمة عليها شعرات سود، فإذا مدت امتدت حتى تحاذي طول يده الأخرى، ثم ترك فتعود إلى منكبه كثدي المرأة، فلما استخرج قال عليّ: الله أكبر! والله ما كذبت ولا كُذبت، أما والله لولا أن تنكلوا عن العمل، لأخبرتكم بما قضى الله على لسان نبيه ﷺ لمن قاتلهم مستبصرًا في قتالهم، عارفاً للحق الذي نحن عليه. قال: ثم مرّ وهم صرعى فقال: بؤساً لكم! لقد ضركم من غركم، فقالوا: يا أمير المؤمنين، من غرهم؟ قال: الشيطان، وأنفس بالسوء أمارة، غرتهم بالأمانى، وزينت لهم المعاصي، ونبأتهم أنهم ظاهرون. قال: وطُلب من به رمق منهم فوجدناهم أربعمائة رجل، فأمر بهم عليّ فدفعوا إلى عشائرهم، وقال: احملوهم معكم فداؤوهم، فإذا برثوا فوافؤا بهم الكوفة، وخذوا ما في عسكرهم من شيء.

قال: وأما السلاح والدواب وما شهدوا به عليه الحرب فقسّمه بين المسلمين، وأما المتاع والعبيد والإماء فإنه حين قدم رده على أهله (١).
معجزة أخرى لرسول الله ﷺ:

أخرج الإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: فيكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتل على تنزيله (٢).

(١) تاريخ الطبري ٨٨/٥.

(٢) المسند ٣١/٣.

يعني فكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو الذي قاتل مخالفه على تأويل القرآن كما قاتل الكفار على تنزيله ، فوقع بذلك ما أخبر به النبي ﷺ .
حكم علي رضي الله عنه عليهم :

أخرج الإمام عبد الرزاق الصنعاني من خبر الإمام الحسن البصري قال : لما قتل علي رضي الله عنه الحرورية ، قالوا : من هؤلاء يا أمير المؤمنين ؟ أكفارٌ هم ؟ قال : من الكفر فروا ، قيل : فمناققون ؟ قال : إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا ، وهؤلاء يذكرون الله كثيرا ، قيل : فما هم ؟ قال : قوم أصابتهم فتنة فعموا فيها وصموا (١) .
مثل من ورع أمير المؤمنين علي رضي الله عنه :

أخرج الإمام الطبري من خبر المحل بن خليفة : أن رجلا منهم من بني سدوس يقال له العيزار بن الأخنس كان يرى رأي الخوارج ، خرج إليهم ، فاستقبل وراء المدائن عدي بن حاتم ومعه الأسود بن قيس والأسود بن يزيد المراديان ، فقال له العيزار حين استقبله : أسالمٌ غانم ، أم ظالمٌ أثم ؟ فقال عدي : لا ، بل سالمٌ غانم ، فقال له المراديان : ما قلت هذا إلا لشرٍّ في نفسك ، وإنك لنعرفك يا عيزار برأي القوم ، فلا تفارقنا حتى نذهب بك إلى أمير المؤمنين فنخبره خبرك . فلم يكن بأوشك أن جاء علي فأخبراه خبره ، وقالوا : يا أمير المؤمنين ، إنه يرى رأي القوم ، قد عرفناه بذلك ، فقال : ما يحل لنا دمه ، ولكننا نجسسه ، فقال عدي بن حاتم : يا أمير المؤمنين ، ادفعه

(١) مصنف عبد الرزاق ، رقم ١٨٦٥٦ (١٠ / ١٥٠) .

إليّ وأنا أضمن ألا يأتيك من قبله مكروه . فدفعه إليه (١) .

وهكذا ابتلي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بأول حركة قتالية يقوم بها الخوارج ، فكان ذلك من الخير للأمة الإسلامية ، حيث سار في معاملتهم قبل الحرب وفي أثنائها وبعدها على توجيهات النبي ﷺ ، فكان بذلك أول قائد يطبق منهج الإسلام في قتال الخوارج .

وقد تبين لنا من صفاتهم في هذه الأخبار زيادة على ما جاء في وصفهم في الأحاديث النبوية التي مرّ ذكرها ، أنهم يتأولون آيات الله تعالى التي نزلت في الكفار على غير وجهها ، حيث يطبقونها على مخالفينهم من المسلمين ، وفي ذلك يقول الإمام البخاري وكان ابن عمر رضي الله عنهما يراهم شرار خلق الله ، وقال : إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها في المؤمنين (٢) .

ومن ذلك أنهم يتسرّعون في تكفير المسلمين ، فيحكمون بالكفر على من وقع في الخطأ في نظرهم ، وبالتالي فإنهم يرون وجوب قتال المسلمين الذين لا يظهرون التوبة من الذنب ، وإن كان هؤلاء المسلمون لا يرون ذلك ذنباً .

هذا ولقد كانت لأمير المؤمنين علي رضي الله عنه في مواجهة تلك المحنة مواقف جهادية وأخلاقية عالية فمن ذلك أنه تحمل خلافهم وردودهم القاسية واعتراضاتهم الجافية ، وأنه وعدهم بأنه لن يؤاخذهم

(١) تاريخ الطبري ٨٩/٥ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب استتابة المرتدين باب ٦ / (١٢/ ٢٨٢) .

بكلامهم مالم يسفكوا دماً أو يتتهبوا مالا ، وقد وفى لهم بذلك بالرغم من أنهم اتهموه بالشرك والكفر والمداهنة في أمر الله تعالى واعترضوا عليه وهو يخطب ، فلم يأخذهم بقتل ولا بسجن ولا بتعذيب ، وهذا يعتبر من أروع أمثلة العدل والسماحة والحكمة .

لقد أعطاهم أمير المؤمنين رضي الله عنه الحرية الكاملة والفرصة التامة للتعبير عن آرائهم ، وجادلهم في شبهاتهم - بالتي هي أحسن - بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة ، فلما أفحمهم ولم يجدوا مجالا للكلام ورأوا أن جدالهم لا يكسبهم أنصارا ، وأن عددهم صار يقل يوما بعد يوم بسبب انقياد عقلائهم للبراهين التي احتج بها عليهم علي وابن عباس رضي الله عنهم ومن ناشدوهم من قادة المسلمين . . لما رأوا ذلك لجؤوا إلى الحرب فاعتدوا على الآمنين ، وسفكوا الدماء المحرمة ، فحلَّ بذلك قتالهم وزالت حرمة دمائهم .

لقد كان الوضع السياسي في ذلك العهد مستقيما عادلا ، حيث كانت الكلمة للحجة والبرهان ، لا للسيف والسنان ، فكان أولئك الخوارج يتكلمون كيف شاؤوا ، ويجتمعون كيف شاؤوا ، ويجادلون بقوة وجرأة ، ولكنهم لم يكونوا أهلا للعدالة ، لأنهم لم يحترموا منطق العقل السليم ، ولم يقتصروا على التعبير بالسنتهم ، ولكنهم لجؤوا إلى التعبير بقوة سلاحهم ، بغياً وغرورا وعدوانا ، فقضوا على أنفسهم بأنفسهم ، وأبادوا بجهلهم جزءا كبيرا من الأمة ، وغُطيت بسبب رعونتهم أرض المعركة بأجساد أبطال لو وجهوا إلى أعداء الإسلام لكانت لهم فيهم نكاية كبيرة .

ولقد كانت الفرصة أمامهم متاحة حتى اللحظات الأخيرة ، حينما

قل عددهم وواجهوا جيشاً أضعاف عددهم ، حيث كان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لم ينقطع عن مناشدتهم في العودة إلى الصف ، وكانوا يعلمون صدقه في ذلك ، ولكن قادتهم لما خشوا من تراجع بعض جنودهم أمروهم بالهجوم السريع ، فكان هجومهم انتحارياً حيث قُتلوا أو جُرحوا جميعاً ولم يفلت منهم أحد .

ولقد طبق أمير المؤمنين علي رضي الله عنه سنة الإسلام في قتال البغاة من المسلمين ، حيث أمر جنوده أن لا يجهزوا على جرحاهم ، وأن لا يتبعوا مدبرهم ، وأن لا يسبوا نساءهم ولا ذريتهم ، وأمر بحمل الجرحى وعلاجهم ، ثم إيصالهم إلى أهاليهم .

وقوله ﷺ « يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ » هل هو دليل على كفر الخوارج؟ ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى أقوال عدد من العلماء حكموا بكفر الخوارج لظاهر هذا الحديث ، ولقوله « لا قتلهم قتل عاد » وفي لفظ « ثمود » وكل منهما إنما هلك على الكفر ، ولقوله « هم شر الخلق » وقوله « إنهم أبغض الخلق إلى الله تعالى » ولتكفيرهم أعلام الصحابة رضي الله عنهم وفيهم من شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة ، ثم ذكر أن أكثر أهل الأصول من أهل السنة على أن الخوارج فساق ، وأن حكم الإسلام يجري عليهم لتلفظهم بالشهادتين ومواظبتهم على أركان الإسلام ، وإنما فسقوا بتكفيرهم المسلمين مستندين إلى تأويل فاسد ، وجرهم ذلك إلى استباحة دماء مخالفيهم وأموالهم والشهادة عليهم بالكفر والشرك (١) .

(١) فتح الباري ١٢/٢٩٩ - ٣٠٠ .

ومن العلماء الذين حكموا بعدم كفرهم شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال : وأصحاب الرسول ﷺ - علي بن أبي طالب وغيره - لم يكفروا الخوارج الذين قاتلوهم ، بل أول ماخرجوا عليه وتحيزوا بحروراء ، وخرجوا عن الطاعة والجماعة ، قال لهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إن لكم علينا أن لا تمنعكم مساجدنا ، ولا حقكم من الفئ . ثم أرسل إليهم ابن عباس فناظرهم فرجع نحو نصفهم ، ثم قاتل الباقي وغلبهم ، ومع هذا لم يسب لهم ذرية ، ولا غنم لهم مالا ، ولا سار فيهم سيرة الصحابة في المرتدين ، كمسيلمة الكذاب وأمثاله ، بل كانت سيرة عليّ والصحابة في الخوارج مخالفة لسيرة الصحابة في أهل الردة ، ولم ينكر أحد على عليّ ذلك ، فعلم اتفاق الصحابة على أنهم لم يكونوا مرتدين عن دين الإسلام .

قال : وقال الإمام محمد بن نصر المروزي : « وقد ولي عليّ رضي الله عنه قتال أهل البغي ، وروى عن النبي ﷺ فيهم ماروى ، وسمّاهم مؤمنين ، وحكم فيهم بأحكام المؤمنين . وكذلك عمار بن ياسر » .

وقال محمد بن نصر أيضا : « حدثنا إسحاق بن راهويه ، حدثنا يحيى بن آدم ، عن مفضل بن مهلهل ، عن الشيباني ، عن قيس بن مسلم ، عن طارق بن شهاب قال : « كنت عند علي حين فرغ من قتال أهل النهروان ، فقليل له : أمشركون هم ؟ قال : من الشرك فروا . فقليل : فمنافقون ؟ قال : المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلا . قيل : فما هم ؟ قال : قوم بغوا علينا فقاتلناهم » (١) .

(١) منهاج السنة النبوية ٥/ ٢٤١ - ٢٤٢ .

وواضح أن القول بعدم تكفير الخوارج أصوب لأن ذلك هو قول
أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد أقره الصحابة
رضي الله عنهم على ذلك ولم يُنقل عنهم خلافه ، والصحابة هم
أعلم المسلمين بتأويل كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

* * *

الخوارج في عهد بني أمية

لقد كثر خروج الخوارج في المشرق والمغرب في عهد بني أمية وماتخلل ذلك من إمامة عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ، وسأكتفي بذكر أمثلة مما جرى من الخوارج في المشرق في عهد معاوية ابن أبي سفيان وعهد عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما لأنهما من أئمة الهدى ولأنهما صحابيان جليلان ، كما سأذكر مثالا مما جرى من الخوارج في المغرب لأهميته في حماية المسلمين من شر أولئك الخوارج .

ثورة فروة الأشجعي وأصحابه :

كانت فرقة من الخوارج قد اعتزلت بشهرزور أيام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، وكانوا خمسمائة مع فروة بن نوفل الأشجعي ، فلما استشهد علي رضي الله عنه خرجوا وهزموا جيش الشام الذي أرسل إليهم فقال معاوية لأهل الكوفة : لأمان لكم عندي حتى تكفؤا بوائقكم ، فخرج أهل الكوفة إلى الخوارج فقاتلوهم فقتلوهم . وذلك في سنة إحدى وأربعين (١) .

وكون أهل الكوفة خرجوا لقتال أبناء قبائلهم دليل على أن النقمة على الخوارج كانت لدى المسلمين عامة ، وذلك لشذوذهم وسوء معتقدتهم ، حيث يعتقدون كفر من خالفهم ، ويستحلون دماءهم وأموالهم ، ويتبرؤون ممن شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة كعثمان وعلي رضي الله عنهما .

(١) تاريخ الطبري باختصار ١٦٥/٥ - ١٦٦ .

ثورة المستورد التيمي وأصحابه :

وفي سنة اثنتين وأربعين خرجت فرقة منهم بقيادة المستورد بن علفة التيمي ، وكانوا يجتمعون سرّاً في الكوفة ، فعلم بهم أميرها المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ، فقام في الناس خطيباً وأنذر رؤساء العشائر ، وحذر من إيوائهم ، فنادى رؤساء العشائر أقوامهم وحذروهم من إيواء الخوارج ، فلما علم بذلك هؤلاء الخوارج تسللوا خفية وخرجوا من الكوفة وتوجهوا نحو « سور » وتجمعوا من أنحاء البلاد حتى اكتمل عددهم ثلاثمائة فساروا نحو « الصراة » .

ثم إن المغيرة بن شعبة علم بهم فعقد جيشاً لقتالهم بقيادة معقل ابن قيس الرياحي وجهز معه ثلاثة آلاف رجل .

وسار الخوارج حتى مروا بالمدائن فمنعهم أميرها سماك بن عبيد من دخولها ، وعلم أمير الخوارج المستورد بخروج معقل بن قيس من الكوفة على أثرهم فأشبار على أصحابه بالرحيل حتى يتقطع جيش الكوفة في ملاحقتهم .

وعلم بذلك معقل بن قيس بعدما وصل المدائن فأمر أصحابه بعدم ملاحقتهم حتى يُفَوّت عليهم هذه الفرصة ، وقدم بين يديه مقدمة بقيادة أبي الرواغ الشاكري في ثلاثمائة فارس ، فلحق بهم في « المذار » فأمر المستورد أصحابه بالهجوم عليهم وإبادتهم قبل وصول الجيش ، فهجموا عليهم فانهزم أكثر أصحاب أبي الرواغ وثبت هو وقليل من جيشه ، ثم أصبح يراوغهم بين الكر والفر حتى يقدم معقل بن قيس .

وعلم معقل بما جرى فأسرع في سبعمائة من أهل النجدة حتى

وصلوا إلى أبي الرواغ ، فهجم عليهم الخوارج وانهزم أكثر أهل الكوفة ، وثبت معقل ونزل وقال : الأرض الأرض يا أهل الإسلام ، ونزل معه أبو الرواغ الشاكري وثبت معهم نحو مائتين من أهل النجدة والحفاظ ، فلما غشيهم المستورد وأصحابه استقبلوهم بالرماح والسيوف ، ثم فاء أهل الكوفة بعد أن ناداهم مسكين بن عامر ، فشدوا على الخوارج حتى هزموهم .

وعلم المستورد أن جيشا آخر قد خرج من البصرة بقيادة شريك بن الأعور وكان قد أرسله أميرها عبد الله بن عامر مددا لإخوانهم من أهل الكوفة ، فقرر الخوارج الفرار حتى لايقعوا بين الجيشين فانسحبوا إلى « جرجيا » .

وعلم بذلك معقل فقرر ملاحقتهم وقدم أمامه أبا الرواغ الشاكري في ستمائة من أصحابه ، أما جيش البصرة فإنهم رجعوا لشعورهم بعدم الحاجة إليهم واحتياج مناطق أخرى لجهادهم .

ولحق أبو الرواغ بالخوارج وجرت بين جيشه وجيش الخوارج مناوشات ، ولما رأى أمير الخوارج ثبات أبي الرواغ وجيشه قرر مباغته جيش معقل ، فانسحب بجيشه نحوهم وهجموا عليهم فانهزم أكثر جيش الكوفة وثبت معقل في طائفة من أصحابه ، وعلم أبو الرواغ بذلك من فلول المنهزمين فأسرع في أصحابه نحو معقل فوجدهم يقاتلون الخوارج قتالا شديداً فشدوا عليهم مع من ثبت من جيش الكوفة مع معقل ، وناذى أمير الخوارج أصحابه بالتزول إلى الأرض وتركوا الخيل ونزل أصحاب معقل أيضا والتحموا بالسيوف في معركة

حامية ، ونادى المستورد معقلا إلى البراز ، فبرز له فطعنه المستورد برمحه وضربه معقل بسيفه فماتا جميعا ، وظل الخوارج يقاتلون حتى قُتلوا جميعا ماعدا عبد الله بن عقبة الغنوي الذي أصبح يخبر عنهم ، وقد قُتل بعد ذلك في موقعة دير الجماجم (١) .

في هذا الخبر مواقف لبعض قادة المسلمين وأمرائهم ، فمن ذلك :

١ - موقف لأمير الكوفة المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ، حيث كان يقظا حذرا عارفا بما يجري تحت دائرة إمارته ، فقد عرف باجتماع أولئك الخوارج في أحد بيوت الكوفة ، ثم علم بهم لما خرجوا ، ولقد كان حازما حينما وجه لهم ذلك الجيش واختار له القائد الكفاء ، فنجح في القضاء عليهم وهم مازالوا في أول أمرهم قبل أن تنتشر دعوتهم ويكثر أنصارهم .

٢ - مواقف جهادية عالية لقائد جيش الكوفة معقل بن قيس الرياحي ، فهو **أولاً** قد علم بخطة الخوارج حينما انسحبوا ولم يقفوا للقتال مع ما اشتهروا به من الإقدام والثبات ، ثم تصرف بحكمة حينما لم يلاحقهم وبعث مقدمة تتعرف على أحوالهم .

وثانياً : أنه قد ثبت في معركتين حينما فرَّ أكثر جيشه وبقي في قلة من جنوده حتى فاء بقية الجيش ، وهذا دليل على شجاعته وتضحيته في سبيل دينه وإخوانه المسلمين .

وثالثاً : أنه أقدم على مبارزة أمير الخوارج المستورد مع ماعرف عن الخوارج من الإقدام والثبات ، ومع ما حصل على الخوارج من

(١) تاريخ الطبري ١٨١/٥ - ٢٠٩ باختصار .

بوادر الهزيمة والاستئصال ، وماظهر من انتصار جيش معقل ، فكان المستورد على هيئة المستमित لأن أغلب أحواله القتل ، أما معقل فكان أغلب مايترجح عنده الحياة لإدبار ربح أعدائه وكثرة من يحميه من حوله ، ومع ذلك أقدم على المبارزة رجاء الحصول على الشهادة التي هي أسمى أمانى المسلمين .

٣ - مواقف جهادية لقائد المقدمة أبي الرواغ الشاكري ، حيث ثبت للخوارج في أول معركة وهو في المقدمة فقط ، ولما علم بأن جنوده لا يستطيعون الثبات للخوارج صار يهجم ثم يحجم ويقرب ثم يبعد ، لأنه لا يريد أن يلتحم معهم التحاماً كاملاً فينهزم جيشه ، ولا يريد أن ينسحب منهم لأن الانسحاب انهزام ، وذلك يعطي الأعداء قوة وجراءة على القتال ، حتى قدم عليهم معقل بن قيس ببقية الجيش .

وحيثما انهزم جيش الكوفة وثبت قائدهم معقل بقلعة من الجيش ثبت معه أبو الرواغ حتى فاء أهل الكوفة بعد ذلك .

وحيثما غير الخوارج خططهم فانسحبوا عنه لياغتوا معقلاً وجيشه وعلم بذلك أبو الرواغ سارع لنجدتهم فوصل في الوقت المناسب ، حيث اجتمع أفراد الجيش كلهم في قتال الخوارج حتى استأصلوهم ، فهذه المواقف تدل على أن أبا الرواغ بطل مغوار وقائد محنك .

وهكذا انتهت حياة ثلاثمائة من المسلمين على هذا الوضع السيء مع ما اشتبهوا به من الصلاح والعبادة ، فكم يفقد المسلمون من الأبطال المغاوير بسبب سوء المعتقد واتباع الهوى ، وتحويل الطاقة القتالية إلى جسم أمتهم !!

خبر الخوارج مع ابن الزبير :

أخرج ابن جرير الطبري من خبر أبي المخارق الراسبي ، قال : لما ركب ابن زياد من الخوارج بعد قتل أبي بلال ماركب ، وقد كان قبل ذلك لا يكف عنهم ولا يستبقيهم غير أنه بعد قتل أبي بلال تجرد لاستئصالهم وهلاكهم ، واجتمعت الخوارج حين ثار ابن الزبير بمكة ، وسار إليه أهل الشام ، فتذاكروا ما أتى إليهم ، فقال لهم نافع بن الأزرق : إنّ الله قد أنزل عليكم الكتاب ، وفرض عليكم فيه الجهاد ، واحتج عليكم بالبيان ، وقد جرد فيكم السيوف أهل الظلم وأولو العدا والغشم ، وهذا من قد ثار بمكة ، فاخرجوا بنا نأت البيت ونلق هذا الرجل ، فإن يكن على رأينا جاهدنا معه العدو ، وإن يكن على غير رأينا دافعنا عن البيت ما استطعنا ، ونظرنا بعد ذلك في أمورنا . فخرجوا حتى قدموا على عبد الله ابن الزبير ، فسر بمقدمهم ، ونبأهم أنه على رأيهم ، وأعطاهم الرضا من غير توقف و لا تفتيش ، فقاتلوا معه حتى مات يزيد بن معاوية ، وانصرف أهل الشام عن مكة . ثم إن القوم لقي بعضهم بعضا ، فقالوا : إن هذا الذي صنعتم أمس لغير رأي ولا صواب من الأمر ، تقاتلون مع رجل لا تدرون لعله ليس على رأيكم ، إنما كان أمس يقاتلكم هو وأبوه ينادي : يال ثارات عثمان ! فأتوه وسلوه عن عثمان ، فإن برئ منه كان وليكم ، وإن أبقى كان عدوكم فمشوا نحوه فقالوا له : أيها الإنسان ، إنا قد قاتلنا معك ، ولم نفتشك عن رأيك حتى نعلم أمنا أنت أم من عدونا ! خبرنا مامالك في عثمان ؟ فنظر فإذا من حوله من أصحابه قليل ، فقال لهم : إنكم أتيتوني فصادفتُموني حين أردت القيام ، ولكن رُحوا إلي

العشية حتى أعلمكم من ذلك الذي تريدون . فانصرفوا ، وبعث إلى أصحابه فقال : البسوا السلاح ، واحضروني بأجمعكم العشية ، ففعلوا ، وجاءت الخوارج ، وقد أقام أصحابه حوله سباطين عليهم السلاح ، وقامت جماعة منهم عظيمة على رأسه بأيديهم الأعمدة ، فقال ابن الأزرق لأصحابه : خشى الرجل غائلتكم ، وقد أزمع بخلافكم واستعدّ لكم ، ماترون ؟

فدنا منه ابن الأزرق ، فقال له : يا بن الزبير ، اتق الله ربك ، وأبغض الخائن المستأثر ، وعاد أول من سن الضلالة ، وأحدث الأحداث ، وخالف حكم الكتاب ، فإنك إن تفعل ذلك تُرض ربك ، وتُنَج من العذاب الأليم نفسك ، وإن تركت ذلك فأنت من الذين استمتعوا بخلاقهم ، وأذهبوا في الحياة الدنيا طيباتهم .

يا عبدة بن هلال ، صف لهذا الإنسان ومن معه أمرنا الذي نحن عليه ، والذي ندعو الناس إليه ، فتقدم عبدة بن هلال ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فإن الله بعث محمداً ﷺ يدعو إلى عبادة الله ، وإخلاص الدين ، فدعا إلى ذلك ، فأجابته المسلمون ، فعمل فيهم بكتاب الله وأمره ، حتى قبضه الله إليه صلى الله عليه ، واستخلف الناس أبا بكر ، واستخلف أبو بكر عمر ، فكلاهما عمل بالكتاب وسنة رسول الله ، فالحمد لله رب العالمين . ثم إن الناس استخلفوا عثمان بن عفان ، فحمى الأحماء ، وآثر القُربى ، واستعمل الفتى ورفع الدرّة ، ووضع السوط ، ومزّق الكتاب ، وحقر المسلم وضرب منكري الجور ، وآوى طريد الرسول ﷺ ، وضرب السابقين بالفضل ، وسيرهم وحرّمهم ، ثم أخذ في الله الذي أفاءه

عليهم فقسمه بين فساق قريش ، ومُجَّان العرب ، فسارت إليه طائفة من المسلمين أخذ الله ميثاقهم على طاعته ، لا يبالون في الله لومة لائم ، فقتلوه ، فنحن لهم أولياء ، ومن ابن عفان وأوليائه بُرَاءً ، فما تقول أنت يا ابن الزبير ؟ قال : فحمد الله ابن الزبير وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فقد فهمتُ الذي ذكرتم ، وذكرت به النبي ﷺ ، فهو كما قلت ﷺ وفوق ما وصفته ، وفهمت ما ذكرت به أبا بكر وعمر ، وقد وفقت وأصبت ، وقد فهمتُ الذي ذكرت به عثمان بن عفان رحمة الله عليه ، وإني لا أعلم مكان أحد من خلق الله اليوم أعلم بابن عفان وأمره مني ، كنتُ معه حيث نقم القوم عليه ، واستعتبوه فلم يدع شيئاً استعته القوم فيه إلا أعتبهم منه . ثم إنهم رجعوا إليه بكتاب له يزعمون أنه كتبه فيهم ، يأمر فيه بقتلهم فقال لهم : ما كتبتُه ، فإن شئتم فهاتوا بيتكم ، فإن لم تكن حلفتُ لكم ، فوالله ماجأوه ببينة ، ولا استحلفوه . ووُثِّبوا عليه فقتلوه ، وقد سمعت ما عتبته به ، فليس كذلك ، بل هو لكل خير أهل ، وأنا أشهدكم ومن حضر أنني وليُّ لابن عفان في الدنيا والآخرة ، وولي أوليائه ، وعدوُّ أعدائه ، قالوا : فبرئ الله منك يا عدوَّ الله ، قال : فبرئ الله منكم أعداء الله (١) .

تفرق الخوارج إلى فرق :

بعد محاورة الخوارج مع عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما تفرقوا ، فذهبت فرقة منهم إلى الإمامة واجتمعوا على لُحْدة بن عامر

(١) تاريخ الطبري ٥/ ٥٦٤ - ٥٦٦ .

الحنفي ، أما أهل البصرة فإنهم انقسموا إلى ثلاث فرق ، فرقة تبعت نافع بن الأزرق الحنظلي وهي أقوى الفرق ، وفرقة تبعوا عبد الله بن صفار السعدي ، وفرقة تبعوا عبد الله بن إباح ، وكان مخالفا لبقية الخوارج ، حيث كان يرى أن كفر المخالفين من المسلمين كفر نعمة وأنه لايجوز قتالهم ، وإليه تنسب فرقة الإباضية المشهورة .

مواقف أهل البصرة في قتال الأزارقة :

الأزارقة هم فرقة من الخوارج يتسبون إلى نافع بن الأزرق الحنظلي ، وأهم ما جاؤوا به من البدع في الدين أنهم كفروا مخالفينهم من المسلمين وأباحوا دماءهم وأموالهم ، وأنهم أباحوا قتل أطفال المخالفين لهم من المسلمين ونساءهم ، وأنهم كفروا القاعدين عن القتال معهم ومن لم يهاجر إليهم وإن كانوا من الخوارج (١) .

وقد اشتدت شوكة الأزارقة بقيادة نافع بن الأزرق بسبب اشتغال أهل البصرة بالاختلاف الذي كان بين قبائلهم ، وكانت دولة الخلافة غير مستقرة ، حيث كان النزاع بين عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما وبني أمية ، وكان أهل البصرة قد اختاروا عبد الله بن الحارث الهاشمي أميرا عليهم ، فبعث إلى الخوارج جيشا بقيادة مسلم بن عبيس القرشي في أهل البصرة ، فاقتتلوا قتالا لم ير مثله ، وقُتل أمير أهل البصرة عبد الله بن الحارث وقُتل رأس الخوارج نافع بن الأزرق ، وأمر أهل البصرة عليهم الحجاج بن باب الحميري ، وأمرت الأزارقة عليهم عبد الله بن الماحوز ، ثم عادوا فاقتتلوا أشد قتال فقتل الحجاج

(١) الملل والنحل للشهرستاني ١/ ١٢٠ .

ابن باب الحميري وقتل عبد الله بن الماحوز ، ثم إن أهل البصرة أمروا عليهم ربيعة بن الأجذم التميمي ، وأمّرت الخوارج عليهم عبيد الله اصبن الماحوز ، ثم عادوا فاقتلوا حتى أمسوا ، وقد كره بعضهم بعضا وملأوا القتال ، فإنهم لم يتوافقون متحاجزون حتى جاءت الخوارج سرية لهم جامعة لم تكن شهدت القتال ، فحملت على الناس من قبل عبد القيس فانهزم الناس ، وقاتل أمير أهل البصرة ربيعة الأجذم فقتل ، وأخذ راية أهل البصرة حارثة بن بدر ، فقاتل ساعة وقد ذهب الناس عنه ، فقاتل من وراء الناس في حمايتهم وأهل الصبر منهم ، ثم أقبل بالناس حتى نزل بهم منزلا بالأهواز (١) .

المهلب بن أبي صفرة والأزارقة :

تولى إمرة البصرة الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة القرشي من قبل عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ، فاتفق الحارث مع أشرف أهل البصرة على تولية المهلب بن أبي صفرة الأزدي قتال الخوارج ، وكان ذلك بإشارة من الأحنف بن قيس التميمي ، وذلك في عام خمسة وستين .

وجاءت الخوارج حتى انتهت إلى الجسر الأصفر عليهم عبيد الله ابن الماحوز ، فخرج إليهم المهلب في أشرف الناس وفرسانهم فحازهم عن الجسر ودفعهم عن البصرة وقد كادوا أن يدخلوها ، ثم لم يزل يلاحقهم وهم ينحازون عنه حتى وصلوا إلى منزل من منازل الأهواز يقال له « سَلَى وَسَلْبَرَى » فأقاموا به .

(١) تاريخ الطبري ٥/٦١٣ - ٦١٤ باختصار .

ولما بلغ حارثة بن بدر الغداني أن المهلب قد أُمر على قتال
الأزارقة قال لمن معه من الناس :

كَرْنِبُوا وَدَوِّلُوا (١) وحيث شئتم فاذهبوا
قد أُمر المهلب

فأقبل بمن كان معه نحو البصرة فصرفهم الحارث بن عبد الله بن
أبي ربيعة إلى المهلب .

ولما نزل المهلب بالقوم خندق عليه ، ووضع الجواسيس والحراس
والمسالح الذين يحملون السلاح بالتناوب لصد الأعداء إذا أتوا على
غِرَّة ، فكان الخوارج إذا أرادوا الهجوم ليلا وجدوا أمرا محكما
فرجعوا ، فلم يقاتلهم إنسان قط كان أشد عليهم ولا أغيظ لقلوبهم من
المهلب .

فلما أصبح الناس أخرجهم المهلب لقتال الخوارج ، وكان الخوارج
أفضل من أهل البصرة من ناحية السلاح ، وذلك لأنهم قد أغاروا
على بلاد فارس ، فانتقوا أفضل السلاح وأجود الخيول ، فالتقى
الناس فاقتتلوا كأشد القتال وصبر بعضهم لبعض ، ثم إن الخوارج
شدوا شدة منكرة فانهزم بعض أهل البصرة وأسرع المهلب فانهز في
مكان على غير طريق المنهزمين ، ثم نادى الناس : إلیَّ عباد الله ،
فثاب إليه بعضهم واجتمع إليه نحو من ثلاثة آلاف ، فحمد الله تعالى
وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فإن الله تعالى ربما يكلُّ الجمع الكثير إلى
أنفسهم فيُهْزَمُونَ ، وينزل النصر على الجمع اليسير فيظهرون ،

(١) الأمر موجه للخوارج وهو للتحدي ، أي تقلبوا حيث شئتم واجمعوا من شئتم .

ولعمري ما بكم الآن من قلة ، إني لجماعتكم لراضٍ ، وإنكم لأنتم أهل الصبر وفرسان أهل المصر، وما أحب أن أحداً ممن انهزم معهم، فإنهم لو كانوا فيكم مازادوكم إلا خبالاً ، عزمت على كل امرئ منكم لَمَّا أخذ عشرة أحجار معه، ثم امشوا بنا نحو عسكرهم فإنهم الآن آمنون، وقد خرجت خيلهم في طلب إخوانكم ، فوالله إني لأرجو أن لا ترجع إليهم خيلهم حتى تستبيحوا عسكرهم وتقتلوا أميرهم، ففعلوا ، ثم أقبل بهم راجعا ، فلا والله ماشعرت الخوارج إلا بالمهلب يضاربهم بالمسلمين في جانب عسكرهم، ثم استقبلوا عبيد الله بن الماحوز وأصحابه وعليهم الدروع والسلاح كاملا ، فأخذ الرجل من أصحاب المهلب يستقبل الرجل منهم فيستعرض وجهه بالحجارة فيرميه حتى يشخه، ثم يطعنه بعد ذلك برمحه أو يضربه بسيفه، فلم يقاتلهم إلا ساعة حتى قُتل عبيد الله بن الماحوز، وضرب الله وجوه أصحابه، وأخذ المهلب عسكر القوم ومافيه، وقُتل الأزارقة قتلا ذريعا .

وأقبل من كان في طلب أهل البصرة منهم راجعا وقد وضع لهم المهلب خيلا ورجالا في الطريق تختطفهم وتقتلهم، فانكفؤوا راجعين مفلولين محروبين مغلوبين (١) .

ففي هذا الخبر مواقف جهادية عالية لهؤلاء المجاهدين، وخاصة قائدهم المهلب بن أبي صفرة الأزدي ، حيث قاتلوا الخوارج وقضوا على فتنة تلك الطائفة منهم وأراحوا المسلمين من شرهم .

(١) تاريخ الطبري ٦١٦/٥ - ٦١٩ .

ولقد ظهرت في هذا الجهاد مواهب المهلب القيادية ، فمن ذلك تخطيطه الجيد لحماية جيشه في الليل ، وذلك بعمل الخندق على المعسكر ووضع الحراس وبث الجواسيس وإعداد الحماة الذين يحملون سلاحهم بالتناوب لصد أي هجوم ليلي من الخوارج .

ومن ذلك تصرفه الحكيم حينما انهزم بعض جيشه ، حيث انحاز في مكان آمن ، ونادى من ثبتوا من جيشه ، ثم هجم بهم على معسكر الخوارج بشكل مباغت ، فكسب بذلك المعركة بعد أن حقق الخوارج انتصاراً كبيراً ، وقد كانت كثير من المواجهات السابقة تنتهي بانتصار الخوارج ، ولكن هذا التصرف الحربي البارع من المهلب أحال انتصار الخوارج إلى هزيمة ساحقة عليهم وانتصار حاسم لجيش المهلب.

ولقد كان لابتكاره سلاح الحجارة أثر واضح في إرباك الأعداء ، لأنه قد خطط لالتحامهم وجهاً لوجه معهم ، فلن يكون هناك إمكانية لاستعمال سلاح النبال ، فكان وقع الحجر على الوجه مربكاً لمن وقع عليه ، وفي تلك الحال يكون الهجوم بالرمح أو بالسيوف حسب بُعد العدو أو قربه .

كما أنه قد أمّن جيشه المهاجم من الخلف حيث وضع فرسانا يواجهون فرسان العدو العائدين من المطاردة ، وكل تلك الترتيبات الحربية تدل على براعة المهلب بن أبي صفرة في التخطيط الحربي .
مثل من فتنة الخوارج في المغرب :

قال الحافظ الذهبي في بيان حوادث سنة خمس وعشرين ومائة :

وكانت الفتن شديدة بالمغرب ، ونيران الحرب تستعر ، وعليها الأمير
حنظلة بن صفوان ، فزحف إليه عكاشة الخارجي في جمع ، فالتقوا
فكانت بينهم وقعة لم يسمع بمثلها وانهزم عكاشة وقتل من البربر من
لا يحصى ثم تناخوا وسار رأسهم عبد الواحد الهواري بنفسه فجهز
حنظلة لملتقاه أربعين ألفاً فانكسروا وولّوا الأدبار وقتل منهم عشرون
ألفاً ، ونزل عبد الواحد بجيوشه على فرسخ من القيروان ، وكان فيما
قيل في ثلاثمائة ألف ، فبذل حنظلة الأموال والسلاح وعباً عشرة
آلاف فخرجوا ومعهم القراء والوعاظ وكثر الدعاء والاستغاثة بالله
وضج النساء والأطفال وكانت ساعة مشهودة ، وسار حنظلة بين
الصفوف يحرض على الجهاد ، واستسلمت النساء للموت لما يعلمن
من رأي هؤلاء الصفرية (١) ، ثم كبر المسلمون وصدقوا الحملة
وكسروا أغماد سيوفهم ، والتحم الحرب وثبت الجمعان ثم انكسرت
ميسرة الإسلام ثم تراجعوا وحملوا فهزموا العدو وقتل عبد الواحد
الهواري وأُتي برأسه ، وقتل البربر مقتلة لم يسمع بمثلها ، وأسر
عكاشة وأُتي به فقتله حنظلة ، وأمر بإحصاء القتلى بالقصب بأن طُرح
على كل قتيل قصبة ثم جمع القصب فبلغت مائة ألف وثمانين ألفاً .
وهذه ملحمة مشهودة ما سمعنا بمثلها قط ، وهؤلاء الكلاب يستبيحون
سبي نساء المسلمين وذريّتهم ودماءهم ويكفّرون أهل القبلة ، وتعرف
بغزوة الأصنام باسم قرية هناك .

(١) الصفرية هم أتباع زياد بن الأصفر ، وقد أنشأ مذهبه الخارجي في العراق ثم انتقل
مذهبه إلى المغرب .

وعن الليث بن سعد قال : ماغزوة كان أحب إليّ أن أشهدها بعد غزوة بدر من غزوة الغرب بالأصنام (١) .

فهذه معركة عجيبة مذهشة لأمرين : أولهما أن عدد الأعداء من الخوارج أضعاف جيش حنظلة بن صفوان ، وثانيهما أنه قد اشتهر أن الخوارج يستमितون في القتال وأنهم - مع قتلهم - يتصرفون على الجيوش الكبيرة ، ولكن الموازين في هذه المعركة قد تبدلت ، فأصيب الخوارج بالفشل والانتكاسة على كثرتهم ، وفاز أهل السنة بالنصر على قتلهم .

وإننا حينما ندرس واقع هذه المعركة وواقع المعارك الأخرى التي كان الخوارج يتصرفون فيها نجد أن العامل القوي في انتصار الخوارج أنهم يقاتلون عن عقيدة راسخة ، فهم إنما يقاتلون ليفوزوا بالشهادة فيتعجلوا للوصول إلى الجنة ، وهم وإن كانوا ضالين في منهجهم ويرتكبون العظائم في قتل المسلمين فإن ذلك لا يؤثر على مستوى يقينهم لأنهم يعتقدون بأنهم على حق وأن الذين يقاتلونهم من المسلمين على الضلال والكفر ، ولكنهم في هذه المعركة قد واجهوا قوما قد ارتفع مستوى اليقين عندهم إلى أعلى مما هم عليه بكثير ، وقد اصطحب هؤلاء المجاهدون من أهل السنة معية الله تعالى لهم بالنصر والتأييد ، وتوكلوا عليه حق التوكل وضجوا بدعائه وطلب النصر منه ، بينما اتكل أعداؤهم على كثرتهم فلم تغن عنهم شيئا لأن الله جل وعلا كان مع أوليائه المؤمنين الذين لا يعتدون على الأمنين

(١) تاريخ الإسلام / حوادث ووفيات ١٢١ - ١٤١ ص ١٢ - ١٣ .

ولا يخيفون السبل ، ففشل الأعداء أمامهم وأتاهم القتل من حيث لا يحتسبون .

وفي آخر هذا الخبر دلالة على إعجاب علماء الإسلام بموقف المجاهدين من أهل السنة في هذه المعركة ، حيث شبهها عالم مصر الإمام الليث بن سعد بمعركة بدر .

* * *

مواقف وعبد

فى

جهاد المسلمين مع الصليبيين

إن من أهم أسباب الحروب الصليبية أن المسلمين امتد نفوذهم حتى استولوا على أكثر بلاد الأناضول ، وخشي الروم من سقوط القسطنطينية بأيديهم ، خصوصا بعد معركة ملاذكرد الناجحة الحاسمة حيث حطم السلطان ألب أرسلان قوات الروم التي تصل إلى مائتي ألف بجيش لا يبلغ عشرين ألفا كما تقدم ، فخاف الروم إن هو جمع قواته البعيدة وانضم إليه مجاهدون من الإمارات الإسلامية الأخرى أن تسقط بلادهم بيد المسلمين ، فاستنجدوا بالصليبيين ، حيث قدموا إلى بلاد الإسلام من الدول الأوربية .

وقد كان المسلمون آنذاك متفرقين إلى إمارات صغيرة فانتهاز الصليبيون الفرصة واستولوا على مدن وحصون في بلاد الشام وماجاورها .

١ - بداية الغزو الصليبي وجهاد بعض أمراء المسلمين -

قد ذكر المؤرخ ابن الأثير أن بداية الغزو الصليبي لبلاد الإسلام كانت سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، حيث استولوا على مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس ، وأنهم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية واستولوا عليها ، وأنهم استولوا على بعض أطراف أفريقية ، وأنهم خرجوا إلى بلاد الشام سنة تسعين وأربعمائة فاستولوا على أنطاكية بعد حصار دام تسعة أشهر أبدى فيه واليها باغيسيان شجاعة عظيمة ، وفي ذلك يقول ابن الأثير : « وظهر من شجاعة باغيسيان وجودة رأيه وحزمه واحتياظه مالم يشاهد من غيره ، فهلك أكثر الفرنج موتا ، ولو بقوا على كثرتهم التي خرجوا فيها لطبقوا بلاد الإسلام » ولكن أنطاكية سقطت بيد الصليبيين بسبب خيانة أحد المستحفظين للأبراج بعد أن بذل له الأعداء مالا وإقطاعا ففتح البرج لهم ودخلوا منه واستولوا على المدينة (١) .

حال المسلمين آنذاك :

كانت حال المسلمين يوم أن غزا الصليبيون بلادهم سيئة للغاية ، فالخلافة في بغداد ضعيفة وليس للخليفة إلا الاسم ، والعبيديون يحكمون مصر وهم ليس عندهم أي حماس للدفاع عن الإسلام ، والشام يحكمه عدد من الأمراء الضعفاء ، والحرب قائمة بينهم ، وحينما اجتمع بعضهم تحت قيادة كربوقا في عام واحد وتسعين وأربعمائة اتفق الأمراء على الانهزام أمام الصليبيين ليوقعوا كربوقا

(١) الكامل في التاريخ ٨ / ١٨٥ - ١٨٦ .

الذي تكبر عليهم ، وكان الصليبيون في أنطاكية في حال شديدة من الضعف والجوع والخوف حيث طلبوا الأمان في مقابل أن يخرجوا من البلد ، ولكن كربوقا رفض ذلك ، فلما كانت المعركة انهزم الأمراء من غير قتال حتى ظن الصليبيون أنها خدعة ، فلما تبين لهم أنهم جادون في الهزيمة شدوا على من بقي من المسلمين وقتلوا منهم ألفا وتقووا بالغنائم ، وواصلوا زحفهم نحو بيت المقدس (١) .

سقوط بيت المقدس بيد الصليبيين :

لما سقطت أنطاكية بيد الصليبيين وانتصروا على الأمراء الأتراك انتهز العبيديون في مصر تلك الفرصة وساروا إلى بيت المقدس وكان واليه سقمان بن أرتق التركماني ، فحاصروه ونصبوا عليه نيفا وأربعين منجنيقا إلى أن استولوا عليه وأنابوا في حكمه رجلا يعرف بافتخار الدولة ، فقصده الصليبيون وحاصروه نيفا وأربعين يوما إلى أن استولوا عليه يوم الجمعة لسبع بقين من شوال عام اثنين وتسعين وأربعمائة فلبثوا فيه أسبوعا يقتلون المسلمين ، وقتلوا بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم ورهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف (٢) .

ولقد عبر عن هذه المأساة الشاعر أبو المظفر الأبيوردي بقوله :

مزجنا دمانا بالدموع السّواجم فلم يبقَ منا عرضة للمّاجم (٣)

(١) الكامل في التاريخ ١٨٦/٨ - ١٨٧ .

(٢) الكامل في التاريخ ١٨٩/٨ .

(٣) السواجم : المذروفة والمّاجم : من الرجم وهو الرمي بالاحجار .

وشرُّ سلاح المرء دمعٌ يريقه إذا الحرب شبتْ نارُها بالصوارم
فإيها بني الإسلام إن وراءكم وقائعٌ يلحقنَ الذرى بالمناسم^(١)
وكيف تنامُ العينُ ملءَ جفونها على هفواتٍ أيقظتْ كلَّ نائم
وإخوانكم بالشام يُضحى مقلهم ظهورَ المذاكي أو بطونُ القشاعم^(٢)
تسومهمُ الرومُ الهوانَ وأنتمُ تجرُّونَ ذيلَ الخفضِ فعلَ المسالم
ومنها قوله :

وبين اختلاس الطعن والضرب وقفةٌ

تظلُّ لها الولدانُ شيبَ القوادم
وتلكَ حروبٌ من يغبُ عن غمارها
ليسلم يقرعُ بعدها سنَّ نادم
سَلَّ نَ بأيدي المشركينَ قواضباً
ستُغمدُ منهم في الكلى والجماجم^(٣)
يكادُ لهنَّ المستجيرُ بطيبةٍ
ينادي بأعلا الصوتِ يا آلَ هاشم
أرى أمتي لا يُشرعونَ إلى العدا
رماحهم والدينُ واهي الدعائم

(١) المناسم : جمع منسم وهو خفّ البعير .

(٢) المذاكي : الجياد ، والقشاعم : النسر .

(٣) القواضب : القواطع من السيوف .

ويجتنبون النارَ خوفاً من الرّدى
ولا يحسبون العارَ ضربةً لآرم
أيرضى صناديدُ الأعراب بالأذى
ويُغضي على ذلِّ كماء الأعاجم (١)
فليتهموا إذ لم يذودوا حميةً
عن الدين ضنّوا غيراً بالمحارم
وإن رهدوا في الأجر إذ حمسَ الوغى

فهلا أتوه رغبةً في المغانم (٢)
وهكذا يظهر لنا الضرر الفادح من بُعد المسلمين عن الحياة
الجهادية ، وضعف الوعي الإسلامي فهؤلاء العلماء والعباد والزهاد
الذين فضلوا الرباط في المسجد الأقصى وحوله لم يفهموا شمول
العبادة في الإسلام ، حيث فهموا أن العبادة هي المبالغة في أداء
الشعائر التعبدية والاشتغال بالعلم القاصر، ولم يهتموا بالاستعداد
للجهاد والمشاركة فيه وإعداد العدة التي أمرهم الله تعالى بها في قوله
﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ
وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ
شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾ [الأنفال : ٦٠] ،
فداهمهم الأعداء الحاقدون وذبحوهم كما تذبح الشياه .

(١) الكمأة : الأبطال .

(٢) البداية والنهاية ١٦٧/١٢ .

إن هؤلاء السبعين ألفاً الذين قتلهم الصليبيون في المسجد الأقصى لو كانوا قد تدربوا على الجهاد، وأصبح كل واحد منهم يملك السلاح لاستطاعوا وحدهم أن يهزموا الصليبيين - بإذن الله تعالى - لأنهم لا يملكون القوة الروحية بتوكلهم على الله جل وعلا واستمدادهم النصر منه، فإذا اجتمع مع هذا العامل المعنوي المهم العامل المادي، من التدريب على القتال وحمل السلاح فإن أصحاب ذلك لا يغلبون بإذن الله جل وعلا .

جهاد سقمان وجكرمش مع الصليبيين :

ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث عام سبعة وتسعين وأربعمائة أنه لما استطال الفرنج - خذلهم الله - بما ملكوه من بلاد الإسلام ، واتفق لهم اشتغال عساكر الإسلام وأمرائه بقتال بعضهم بعضاً وتفرقت كلمة المسلمين زحف الصليبيون نحو حران ليأخذوها، وكان بين الأمير معين الدولة سقمان الأرمني وشمس الدولة جكرمش نزاع وكان كل واحد منهما يعد العدة لقتال الآخر ، فلما علما بتحرك الصليبيين شرقاً أرسل كل واحد منهما إلى صاحبه يدعوه إلى الاجتماع معه لقتال الصليبيين وتلافي أمر حران ويعلمه بأنه قد بذل نفسه لله تعالى، فكل واحد منهما أجاب صاحبه إلى ما طلب منه، وسارا فاجتمعا على الخابور وتحالفا ، وسارا إلى لقاء الصليبيين ، وكان مع سقمان سبعة آلاف فارس من التركمان ، ومع جكرمش ثلاثة آلاف فارس من الترك والعرب والأكراد ، فالتقوا على نهر البليخ وكان المصاف بينهما هناك ، فاقتتلوا فأظهر المسلمون الانهزام فتبعهم الصليبيون نحو فرسخين، فعاد

عليهم المسلمون فقتلوهم كيف شاؤوا ، وامتألت أيدي التركمان من الغنائم ، ووصلوا إلى الأموال العظيمة لأن مؤن الأعداء كانت قريبة منهم .

وكان يميند صاحب أنطاكية ، وطنكري صاحب الساحل قد انفردا وراء جبل ليأتيا المسلمين من وراء ظهورهم إذا اشتدت الحرب ، فلما خرجا رأيا الصليبيين منهزمين فأقاما إلى الليل وهربا بجنودهما ، فتبعهم المسلمون وقتلوا من أصحابهما كثيرا وأسروا كذلك ، وأفلتا في ستة فرسان .

وكان بردويل صاحب الرها قد انهزم مع جماعة من رؤسائهم ، وخاضوا نهر البليخ فوصلت خيولهم ، فجاء تركماني من أصحاب سقمان فأخذهم وحمل بردويل إلى مخيم صاحبه ، وكان سقمان قد سار فيمن معه لاتباع يميند .

وسار سقمان إلى حصون الفرنج فاستولى على عدد منها ، أما جكرمش فقد سار إلى حران فاستولى عليها .

وبلغ عدد القتلى من الصليبيين ما يقارب اثني عشر ألف قتيل^(١) .

وهكذا انتصر المسلمون على الصليبيين انتصارا كبيرا لما اجتمع أميران منهم وصدقا في جهادهما ، ولقد كان موقفاً عالياً يذكر لهذين الأميرين سقمان وجكرمش حينما تناسيا ما كان بينهما من خلاف وتوجهها معا للخطر المشترك عليهما ، ولو أن أمراء المسلمين آنذاك فعلوا فعلهما لم يبق في أرض المسلمين أحد من الأعداء ، ولا استطاعوا

(١) الكامل في التاريخ ٢٢١/٨ - ٢٢٢ .

أن يُخضعوا أمم الأرض لحكم الإسلام ، وإنما يُؤتَى المسلمون من الشقاق والتناحر فيما بينهم .

جهاد طغتكين مع الصليبيين :

ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة تسع وتسعين وأربعمائة أنه في شهر صفر جرت معركة بين أمير دمشق طغتكين والصليبيين بقيادة بغدوين أمير القدس وعكا وغيرهما ، وذلك بعد معارك جرت بينهما ، ثم إن بغدوين بنى حصناً بينه وبين دمشق نحو يومين فخاف طغتكين من شرور ذلك ، فسار إلى الصليبيين والتقوا واقتتلوا أشد قتال ، فانهزم أميران من عسكر دمشق فتبعهما طغتكين وقتلهما ، وانهزم الصليبيون إلى حصنهم فاحتما به ، فقال طغتكين : من أحسن قتالهم وطلب مني أمرا فعلته له ، ومن أتاني بحجر من حجارة الحصن أعطيته خمسة دنانير ، فبذل الرجال نفوسهم وصعدوا إلى الحصن وخربوه ، وحملوا حجارته إلى طغتكين فوفى لهم بما وعدهم ، وأمر بإلقاء الحجارة في الوادي ، وأسروا من بالحصن ، فأمر بهم فقتلوا كلهم ، واستبقى الفرسان أسراء ، وكانوا مائتي فارس ، ولم ينج من كان في الحصن إلا القليل (١) .

هذا وإننا لنجد في هذا الخبر صورا من الحزم الذي اتصف به الأمير طغتكين ، وذلك في الاهتمام بجهاد الصليبيين لإزالة ذلك الحصن الذي اتخذوه وقاية لهم ليحتموا به إذا أغاروا على دمشق فقام بجهاد ذلك الأمير الصليبي حتى هزمه ، وهدم ذلك الحصن ، ثم

(١) الكامل في التاريخ ٨ / ٢٣٠ .

فيمّا أقدم عليه من قتل ذينك الأميرين الذين خانانا الأمانة وفرّاً إلى دمشق، وهذه الصورة قل أن يوجد لها نظير في تاريخ الحروب، وهي تعطي دروساً قوية بليغة للقادة والجنود حتى لا يفرّوا يوم الزحف فيحدثوا الفشل والخلل في صفوف الجيش .

واخيراً في الطريقة التي سلكها ذلك الأمير في هدم ذلك الحصن، حيث إنه لم يكن فيما يظهر عنده شيء من آلات الرمي الثقيلة كالمجانيق فوجه أفراد جيشه بالإغراء المذكور ليقوموا بهدم ذلك الحصن، فأنجزوا تلك المهمة بكثرة العدد و تظافر الجهود ، وهذا يدل أيضاً على حزم هذا الأمير وعلو تفكيره الحربي .

* * *

٢ - جهاد عماد الدين زنكي مع الصليبيين -

هو عماد الدين زنكي بن آق سنقر بن عبد الله آل ترغان من قبائل « الساب يو » التركمانية ، وقد كان أبوه مقدما عند ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي ، ولما تولى مُلك السلاجقة بركيا روق بن ملكشاه عيّن آق سنقر على إمارة حلب وكان حازما عادلا ، وبعد أن قُتل آق سنقر انتقل ابنه عماد الدين إلى الموصل في رعاية حاكمها القائد السلجوقي كربوقا الذي كان صديقا لوالده وكان عماد الدين في العاشرة من عمره ، ومازال بعد أن بلغ سن الشباب موضع الثقة عند حكام السلاجقة لما رأوا فيه من النبل والشجاعة ، واشترك مع الأمير مودود بن التونتكين في حروبه مع الصليبيين .

وفي عام واحد وعشرين وخمسمائة صار أميراً على مدينة الموصل من قبل السلاجقة ، وقد دفعه طموحه بعد ذلك إلى ضم منطقة الجزيرة وشمال الشام إلى سلطته وكان ذلك بداية قوته وتوجهه لجهاد الصليبيين (١) .

معركته مع الصليبيين حول حمص :

كان من أبرز مواجهاته معهم ماقام به من مواجهة جيش لهم كبير ، أرادوا به مباغتته وهو محاصر حمص ، وكانوا قد شعروا بتزايد قوته مع اتساع إمارته فانسحب من حمص وأظهر عزمه على حصار حصن « بعرين » المنيع الذي استولى عليه النصاري ، وقد استدرجهم

(١) عماد الدين زنكي للدكتور عماد الدين خليل / ٣١ - ١١٥ .

وكان حكم عماد الدين زنكي مابين عامي واحد وعشرين وواحد وأربعين وخمسمائة .

بذلك لاختيار الموقع المناسب ، وما أن بدأ زحفه صوب ذلك الموقع حتى تقدم إليه الصليبيون بقيادة «فولك» ملك بيت المقدس ، وريموند ملك طرابلس ، ودارت بين الطرفين معركة شديدة انتهت بانتصار المسلمين، وقُتل وأسر عدد كبير من جند العدو وأمرائه وقادته، وكان ريموند من بينهم، أما فولك فقد تمكن من الهروب إلى حصن بعرين^(١).

وهكذا أظهر عماد الدين براعة حربية حيث استدرك الصليبيين بعيداً عن مدينة حمص وقلعة بعرين حتى لا يأتيهم منهما مدد، فاستطاع - بتوفيق الله تعالى - أن ينتصر عليهم وأن يأسر أمراءهم وقادتهم مع اجتماعهم لقتاله .

فتح حصن بعرين :

ثم تقدم عماد الدين زنكي لحصار حصن « بعرين » ، ونظراً لأهمية هذا الحصن فإن الصليبيين استنجدوا بملك الروم ويدوكل أوروبا قائلين إن عماد الدين إن استولى على هذا الحصن سهل عليه القضاء على الممالك الصليبية في الشام ، وإن المسلمين لهم نية في استعادة بيت المقدس ، وقد جاء ملك الروم ومعه الأمداد الأوربية وأمراء النصارى في الشام ، ولكن بعدما تم استيلاء عماد الدين على ذلك الحصن .

(١) عماد الدين زنكي ، للدكتور عماد الدين خليل ، عن ذيل تاريخ دمشق ، والكامل ، والباهر / ١٤٢ .

مواجهة بينه وبين الصليبيين والروم :

وقد أرسل عماد الدين أمراء المسلمين لإمداده فأمدوه، ولدهائه ودقة تخطيطه الحربي استطاع أن يفرق جمع الأعداء، وكان قد اتجه بقواته شمالاً وعسكر قرب حماة والأعداء يحاصرون « شيزر » التي تقع شمال حماة، وكان عماد الدين يركب كل يوم في عساكره، ويسير إلى شيزر بحيث يراه ملك الروم ، ويرسل السرايا تتخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب، ثم يعود آخر النهار .

ثم أرسل إلى أولئك الحلفاء يقول لهم : إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال - المحيطة بشيزر - فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرتم أخذتم شيزر وغيرها ، وإن ظفرنا بكم أرحت المسلمين من شركم، ولم يكن له بهم قوة لكثرتهم وإنما كان يفعل هذا ترهيباً لهم .

وهكذا نجح عماد الدين في خداعهم وإرهابهم ، حيث ظنوا أن معه جيشاً كبيراً وأن الذين يغيرون عليهم كل يوم إنما هم سرية من سرايا عماد الدين .

هذا إضافة إلى استعماله المكائد للتفريق بين أولئك الحلفاء، حيث حذر صليبي الشام من استيلاء أمبراطور الروم على بلادهم، كما أوهم هذا الامبراطور بأن نصارى الشام قد تحالفوا معه ، فلذلك كله قرر ملك الروم الانسحاب ، وفكَّ الحصار عن شيزر في التاسع من رمضان عام اثنين وثلاثين وخمسمائة، واستولى عماد الدين على آلاتهم الحربية الثقيلة ، كما أرسل بعض قواته لملاحقتهم فقتلوا وأسروا عدداً كبيراً منهم (١) .

(١) عماد الدين رنكي / ١٤٣ - ١٤٧ ، عن عدد من المصادر القديمة والحديثة .

فتح مدينة الرها :

أما أهم عمل قام به في جهاد الصليبيين فهو فتح مدينة « الرها » وذلك في السادس من جمادى الآخرة من عام تسعة وثلاثين وخمسمائة ، وهي من أكبر مدن الجزيرة ، وفيها إمارة للنصارى قوية ، ويتبعها عدد من قرى الجزيرة ، وهي تحت إمرة « جوسلين » أقوى الصليبيين آنذاك وأشدّهم دهاءً ومكراً ، وقد كان بلاؤه على المسلمين من حوله عظيماً .

وقد كان عماد الدين يعلم أنه إذا قصد حصارها اجتمع فيها من الفرنج من يمنعها فيتعذر عليه فتحها لما هي عليه من الحصانة ، فأظهر أنه سائر إلى ديار بكر ليوهم الفرنج أنه لا يريد بلادهم ، فلما علم بذلك جوسلين اطمأن وفارق الرها إلى بلاد الشام ، فجاءت عيون عماد الدين فأخبروه الخبر ، فنادى بالعسكر بالرحيل ، وجمع الأمراء ، وقدم لهم الطعام ، وقال : لا يأكلُ معي على مائدتي هذه إلا من يطعن غداً معي بباب الرها ، فلم يتقدم إليه غير أمير واحد لما يعلمون من إقدامه وشجاعته ، وأن أحداً لا يقدر على مساواته في الحرب . وسار والعساكر معه ووصل إلى الرها ، وكان هو أول من حمل على الفرنج ، وحمل فارس من خيالة الفرنج على عماد الدين فاعترضه ذلك الأمير الذي سار معه فطعنه فقتله .

وقاتل أهل البلد ثمانية وعشرين يوماً ، وقدم النقبّين ، فنقبوا سور البلد ، حتى أسقطوا جزءاً منه ، فاستولى على البلد عنوة وحاصر قلعته حتى ملكها ، وجعل في البلد عسكرياً يحفظه ، ثم أغار على

القرى التي تحت سلطان الصليبيين فاستولى عليها، وبسقوط الرها زالت دولة الصليبيين في الجزيرة .

وبهذا الفتح علت سمعة عماد الدين زنكي عند المسلمين، وأضفى عليه الخليفة ألقاباً عالية ، وخاف منه الصليبيون والروم، وكان من أثر ذلك أن اتفقوا وقاموا بحملتهم الثانية التي تصدى لها ابنه نور الدين محمود بعد استشهاد أبيه رحمه الله (١) .

* * *

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٩/٨-٩ ، وانظر « عماد الدين زنكي ٧/١٤٩ » .

٣ - جهاد نور الدين محمود مع الصليبيين -

هو نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ، تولى إمارة حلب ، ثم اتسعت سلطنته حتى شملت بلاد الشام والجزيرة ومصر والحجاز واليمن ، وقد اشتهر بالعدل في الحكم ، حتى قال عنه المؤرخ ابن الأثير : وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ولا أكثر تحرياً منه للعدل (١) .

كما أنه قد اشتهر بالشجاعة وحب الجهاد ، وقد ذكر ابن الأثير من شجاعته أنه كان في الحرب يأخذ قوسين ليقا تل بهما ، وأن الفقيه القطب التساوي قال : بالله عليك لاتخاطر بنفسك وبالإسلام فإنك إن أصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف ، فقال نور الدين : ومن محمود حتى يقال له هذا ، من قبلي من حفظ البلاد والإسلام ، ذلك الله الذي لا إله إلا هو (٢) .

ولقد ظل رحمه الله تعالى يجاهد الصليبيين حتى أضعفهم وقلص من وجودهم في الشام ، وكان حلمه الكبير أن يفتح بيت المقدس ويطهرها من الصليبيين ولكن وافته المنية في سنة تسع وستين وخمسائة قبل أن يتحقق ذلك ، ولكن فتحها تم بعد ذلك على يدي صلاح الدين الأيوبي .

(١) الكامل في التاريخ ١٢٥/٩ .

وقد استمر حكمه ما بين عامي واحد وأربعين وتسعة وستين وخمسائة .

(٢) الكامل في التاريخ ١٢٥/٩ .

معركة يغرَى :

ومن أخبار جهاده مذكره العلامة المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة حيث قال: في هذه السنة هزم نور الدين محمود بن زنكي الفرنج بمكان اسمه « يغرَى » من أرض الشام، وكانوا قد تجمعوا ليقصدوا أعمال حلب ليغيروا عليها، فعلم نور الدين فسار إليهم في عسكره، فالتقوا بيغرَى ، واقتتلوا قتالا شديداً انجلت المعركة عن انهزام الفرنج ، وقُتل منهم كثير ، وأسر جماعة من مُقدّمِيهم ، ولم ينج من ذلك الجمع إلا القليل (١) .

استيلاؤه على حصن عزاز وماحوله :

وذكر في حوادث سنة ست وأربعين وخمسمائة أن نور الدين استطاع أن يأسر جوسلين الذي كان أعظم ملوك الفرنج شجاعة ودهاء ، وكان قد استولى على قرى وحصون شمالي مدينة حلب لما فقد إمارة الرها ، وكان نور الدين قد وضع عليه العيون، فلما خرج للصيد أبلغوا أبا بكر بن الداية نائب نور الدين على حلب فجاء بفرقة معه فأسره ، وقد فرح المسلمون كثيراً بأسره لشدة أذاه عليهم، وأصيب النصارى به لشدة غنائه فيهم ، واستولى بعد ذلك نور الدين على قلاعه وحصونه ومنها عزاز .

وقد مدحه الشعراء على ذلك ، وما قيل فيه قصيدة للقيسراني يقول فيها مُعرضاً بجوسلين :

طغى وبغى عدوّاً على غلوائه فأوبقه الكُفْرانِ عدوّاه والكفرُ

(١) الكامل في التاريخ ٢٢/٩ .

وأَمَسَتْ عَزَّازَ كَاسِمْهَا بِكَ عَزَّةً تَشْقُ عَلَى النَّسْرَيْنِ^(١) لَوَانِهَا وَكَرَ
 فَسِرُوا وَأَمْلِكِ الدُّنْيَا ضِيَاءً وَبَهْجَةً فَبِالْأَفْقِ الدَّاجِي إِلَى ذِي السَّنَا فَقَرَّ
 كَأَنِّي بِهَذَا الْعِزْمِ لَأَفْلَحُ حُدَّهُ وَأَقْصَاهُ بِالْأَقْصَى^(٢) وَقَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ
 وَقَدْ أَصْبَحَ الْبَيْتُ الْمُقَدَّسُ طَاهِرًا وَلَيْسَ سِوَى جَارِي الدِّمَاءِ لَهُ طَهْرٌ^(٣)
مَعْرَكَةُ دَلُوكَ وَفَتْحُهَا :

ثم ذكر ابن الأثير في حوادث سنة سبع وأربعين وخمسمائة أن
 الفرنج تجمعت وحشدت الفارس والراجل ، وساروا نحو نور الدين
 وهو ببلاد جوسلين ليمنعوه من مُلْكِهَا ، فوصلوا إليه وهو بدُلُوكَ ،
 فلما قربوا منه رجع إليهم ولقيهم ، وجرى المصافُّ بينهم عند دُلُوكَ ،
 واقتتلوا أشدَّ قتالٍ رآه الناس ، وصبر الفريقان ، ثم انهزم الفرنج وقُتِلَ
 منهم وأسر كثير ، وعاد نور الدين إلى دُلُوكَ فاستولى عليها ، ومحا قيل
 في ذلك :

أَعَدَّتْ بَعْصَرِكَ هَذَا الْأَنْبِيَّ	قِ فَتَوْحِ النَّبِيِّ وَأَعْصَارَهَا
وَكَانَ مُهَاجِرُهَا تَابِعِي	كَ وَأَنْصَارُ رَأْيِكَ أَنْصَارَهَا
فَجَدَّدَتْ إِسْلَامَ سَلْمَانِهَا	وَعَمَّرَ جَدُّكَ عَمَّارَهَا ^(٤)

فَتْحُ قَلْعَةِ حَارِمَ :

ثم ذكر ابن الأثير أن نور الدين عزم على فتح قلعة حارم المنيعه

(١) النسران كوكبان وسميا بذلك تشبيها بالنسر الطائر .

(٢) أي المسجد الأقصى .

(٣) الكامل في التاريخ ٢٩/٩ - ٣٠ .

(٤) الكامل في التاريخ ٣٢/٩ .

وهي قرب أنطاكية ولها أهمية كبيرة عند النصاري ، وحاصرها وضيق عليها ، وقد اجتمعت الفرنج لترحيله عنها ولكن أحد عقلائهم في القلعة أشار عليهم بعدم مواجهة نور الدين لعدم مقدرتهم على قتاله ، ثم حاصرها مرة أخرى فصالحوه على تسليمه نصف أعمال القلعة .

ثم في المرة الثالثة عزم على فتح القلعة ، واستنجد بأخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل والجزيرة ، وبفخر الدين قرا أرسلان صاحب حصن كيفا ، وبنجم الدين ألبى صاحب ماردين ، فأما قطب الدين فإنه سار مُجِدًّا وفي مقدمته زين الدين علي أمير جيشه ، وأما فخر الدين صاحب الحصن فإنه استشار خواصه فقالوا : على أي شيء عزمتم ؟ فقال : على القعود ، فإن نور الدين قد تحشَّف من كثرة الصوم والصلاة ، وهو يُلقِي نفسه في المهالك ، فكلهم وافقه على هذا الرأي ، فلما كان من الغد أمر بالتجهز للغزاة فقال له خواصه : فارقناك أمس على حالة فنراك اليوم على ضدها ! فقال : إن نور الدين قد سلك معي طريقا إن لم أُنجِدهُ خرج أهل بلادي عن طاعتي وأخرجوا البلاد عن يدي ، فإنه قد كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا يَذْكُرُ لهم مالقي المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل والأسر ، ويستمد منهم الدعاء ، ويطلب أن يحثوا المسلمين على الغزاة ، فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أصحابه وأتباعه وهم يقرؤون كتب نور الدين ويكون ويلعنوني ويدعون علي ، فلا بد من المسير إليه ، ثم تجهز وسار بنفسه .

وأما نجم الدين فإنه سَيرَ عسكريا .

فلما اجتمعت العساكر سار نور الدين نحو حارم فحصرها ونصب عليها المجانيق، وتابع الزحف عليها، فاجتمع من بقي بالساحل من الفرنج، فجاؤوا في حُدْهم وحديدهم وملوكهم وفرسانهم، وقسوسهم ورهبانهم، وأقبلوا إليه من كل حذب ينسلون، وكان المقدّم فيهم البرنس بيمند صاحب أنطاكيه، وقمص صاحب طرابلس وأعمالها، وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج، والدوك وهو مقدّم كبير من الروم، وجمعوا الفارس والراجل.

فلما قاربوه رحل عن حارم إلى أرتاح طمعا أن يتبعوه فيتمكن منهم بيعدهم عن بلادهم، فساروا فتزلوا على غمر، ثم علموا عجزهم عن لقاءه فعادوا إلى حارم، فلما عادوا تبعهم نور الدين في أبطال المسلمين على تعبئة الحرب، فلما تقاربوا اصطفوا للقتال، فبدأ الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين وفيها عسكر حلب وصاحب الحصن، فانهزم المسلمون فيها، وتبعهم الفرنج، فقليل كانت الهزيمة من الميمنة على اتفاق ورأي دبروه، وهو أن يتبعهم الفرنج، فيبعدوا عن راجلهم فيميل عليهم من بقي من المسلمين بالسيوف، فإذا عاد فرسانهم لم يلقوا رجلاً يلجئون إليه، ويعود المنهزمون في آثارهم، فيأخذهم المسلمون من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيانهم وعن شمائلهم، فكان الأمر على مادبروه، فإن الفرنج لما تبعوا المنهزمين عطف زين الدين في عسكر الموصل على راجل الفرنج فأفناهم قتلاً وأسراً، وعاد خيالتهم ولم يُمنعوا في الطلب خوفاً على راجلهم، فعاد المنهزمون في آثارهم، فلما وصل الفرنج رأوا رجالهم قتلى وأسرى،

فسقط في أيديهم ، ورأوا أنهم قد هلكوا ، وبقوا في الوسط قد أحرق بهم المسلمون من كل جانب ، فاشتدت الحرب ، وكثر القتل في الفرنج ، وتمت عليهم الهزيمة ، فعدل حينئذ المسلمون عن القتل إلى الأسر ، فأسروا مالا يُحَدّ ، وفي جملة الأسرى صاحب أنطاكية وصاحب طرابلس « القمص » وكان شيطان الفرنج وأشدّهم شكيمة على المسلمين ، والدُّوك مقدّم الروم ، وابن جوسلين ، وكان عدد القتلى يزيد على عشرة آلاف .

وقد فادى نور الدين بالأسرى عدداً كبيراً من أسرى المسلمين .
وكان للشعراء دور طيب في الثناء على نور الدين وتأيينه في حصار تلك القلعة وفتحها ، ومن ذلك قصيدة لأحد الشعراء أكتفي بذكر أبيات منها يقول فيها :

أَلْبَسْتَ دِينَ مُحَمَّدٍ يَانُورَهُ	عِزّاً لَهُ فَوْقَ السَّهْلِ آسَادُ
مَازَلْتَ تَشْمَلُهُ بِمَيْسَادِ الْقَنَا	حَتَّى تَتَّقَفَ عَوْدَهُ الْمِيَادُ
لَمْ يَبْقَ مَذْأَرُهُفَتْ عِزْمُكَ دُونَهُ	عَدَدُ يُرَاعُ بِهِ وَلَا اسْتِعْدَادُ
إِنَّ الْمُنَابِرَ لَوُ تَطْلِقُ تَكْلُمًا	حَمْدُكَ عَنْ خُطْبَائِهَا الْأَعْوَادُ
مَنْ مُنْكَرٍ أَنْ يَنْسِفَ السَّيْلَ الرِّبَا	وَأَبُوهُ ذَاكَ الْعَارِضَ الْمَدَادُ
لَا يَنْفَعُ الْآبَاءَ مَا سَمَكُوا مِنْ أَلِ	عُلِيَاءَ حَتَّى يَرْفَعَ الْأَوْلَادُ (١)

(١) الكامل في التاريخ ٤٩/٩ ، ٧٩ ، ٨٦ - ٨٧ .

وذلك في سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، وسبع وخمسين وخمسمائة وتسع وخمسين وخمسمائة .

وهكذا سعد المسلمون بهذه الانتصارات الكبيرة على الصليبيين بعد أن لقي منهم المسلمون عنتاً شديداً فجادت قرائح الشعراء بالقصائد العصماء في مدح الإمام العادل والمجاهد البطل نور الدين محمود، وإن هناك ما هو أعظم من المدائح الشعرية مما لا يسطر في الكتب إلا قليلاً ، ألا وهو لهج السنة الصالحين بالدعاء ، وهذا عند نور الدين وأمثاله أهم كثيراً وأعظم .

ولقد أثبتت هذه الوقائع وغيرها أن نور الدين مع ما تصف به من الشجاعة والإقدام كان ذا رأي مسدد في الحرب ، وإلى ذلك ترجع بعض انتصاراته على الأعداء .

فتح قلعة بانياس :

ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة تسع وخمسين وخمسمائة أنه في ذي الحجة من هذه السنة سار نور الدين إلى قلعة بانياس ، وهي بالقرب من دمشق ، وكانت بيد الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، ولما فتح « حارم » أذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم ، وأظهر أنه يريد طبرية ، فجعل من بقي من الفرنج هممتهم حفظها وتقويتها ، فسار محمود إلى « بانياس » لعلمه بقلعة من فيها من الحماة المانعين عنها ، فنازل أهلها وضيق عليهم وقتلهم ، وكان في جملة عسكره أخوه نُصْرَة الدين أمير أميران ، فأصابه سهم فأذهب إحدى عينيه ، فلما رآه نور الدين قال له : لو كُشِف لك عن الأجر الذي أعد لك لتمنيت ذهاب الأخرى .

وجد في حصارها ، فسمع الفرنج فجمعوا ، فلم تتكامل عدتهم

حتى فتحها ، على أن الفرنج قد ضعفوا بقتل رجالهم في حارم وأسْرِهِم ، فملك القلعة وملاها ذخائر وعُدَّة ورجالا ، وشاطر الفرنج في أعمال طبرية ، وقرروا له على الأعمال التي لم يشاطرها عليها مالا في كل سنة .

ووصل خبر استيلاء نور الدين على حصن حارم وحصن بانياس إلى الفرنج بمصر ، فصالحوا شيركوه (١) وعادوا ليدركوا بانياس ، فلم يصلوا إلا وقد استولى عليها نور الدين (٢) .

فهذا الخبر فيه مواقف عالية لنور الدين محمود رحمه الله تعالى ، فمن ذلك تخطيطه الحربي البارِع ، وذلك حينما أوهم أعداءه بأنه سائر إلى طبرية ، ثم عاد إلى بانياس ، فكان استعداد الأعداء في غير المكان الذي قصد ، وترتب على هذه الخدعة الحربية نجاحه في الاستيلاء على بانياس .

وما عمَلَه نور الدين من خداع الأعداء داخل في قول رسول الله ﷺ « الحرب خدعة » (٣) .

ومن ذلك عزاؤه البليغ لأخيه الذي فُقِئت عنه في الحرب ، وهذا العزاء يدل على عمق إيمان نور الدين ورسوخ يقينه ، وعظمة استحضاره لمشاهد الحياة الآخرة .

(١) شيركوه هو أسد الدين الأيوبي وهو عم صلاح الدين الأيوبي ، وهو من أكبر قادة نور الدين ، وقد وجهه للاستيلاء على مصر وبصحته ابن أخيه صلاح الدين .

(٢) الكامل في التاريخ ٨ / ٨٧ .

(٣) صحيح البخاري ، الجهاد ، رقم ٣٠٣٠ (١٥٨/٦) ، صحيح مسلم الجهاد ، رقم ١٧٣٩ (١٣٦١/٣) .

فتح حصن المنيطرة وصافيثا وعريمة :

وهذه خدعة حربية أخرى يقوم بها نور الدين محمود، فقد ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة إحدى وستين وخمسمائة أنه سار إلى حصن المنيطرة - وكان بيد الفرنج - بعدد قليل من جيشه على غرة منهم ، وهو يعلم أنه لو جمع عساكره حذروا ، فسار إليهم وانتهاز فرصة غفلتهم ، فحاصره وجد في قتال أصحابه فأخذه عنوة وقتل بعض رجاله وسبى بعضهم ، ولم يجتمع الفرنج للدفاع عنه إلا وقد استولى عليه ، ففارقوا وأيسوا من رده (١) .

وهكذا تكون إدارة الحروب الناجحة : مكاسب كبيرة في مقابل خسائر قليلة .

وقد استمر نور الدين في غزو الصليبيين في بلاد الشام ، فقد غزا بلادهم سنة ثلاث وستين وخمسمائة فاستولى على بعض قلاعهم وحصونهم ومنها « صافيثا وعريمة » (٢) .

القضاء على حملة صليبية :

على إثر انتصارات نور الدين المتتالية في الشام واستيلائه على مصر بعث الصليبيون إلى دول أوروبا يطلبون نجدتهم ، ويخوفونهم من استيلاء نور الدين على بيت المقدس ، فأرسلوا لهم حملة وصلت إلى دمياط ، ولما علم بهم الصليبيون في الشام أمدوهم بالجيوش ، وكان أسد الدين شيركوه قد مات وخلفه على ولاية مصر ابن أخيه صلاح

(١) الكامل في التاريخ ٩٤/٩ ، وانظر البداية والنهاية ٢٦٩/١٢ .

(٢) الكامل ٩٦/٩ .

الدين الأيوبي ، فأرسل الجيوش إلى دمياط ، واستمد نور الدين فأمده بالجيوش أرسلًا وانتهاز فرصة خروج جيوش الصليبيين إلى مصر فأغار على بلادهم في الشام واستولى على كثير منها وخرب كثيرًا من حصونهم ، وقد قاومهم صلاح الدين في مصر حتى هزمهم ، ورجعت الحملة الصليبية إلى أوروبا خاسئة حسيرة ، ورجع الصليبيون إلى الشام فوجدوا نور الدين قد استولى على كثير من بلادهم ، فخسروا الشام ولم يكسبوا مصر (١) .

وهذا يعتبر نجاحًا كبيرًا لنور الدين الذي وفق برجال أكفاء أقوياء من أمثال أسد الدين وصلاح الدين .

حصار حصن الكرك ولقاء مع الصليبيين :

ذكر ابن الأثير حصار نور الدين حصن الكرك ، وهو من أمتع المعاقل على طرف البر ، فحاصره وضيق على أهله ، ونصب عليه المنجنيقات ، فأتاه الخبر أن الصليبيين قد جمعوا له وساروا إليه ، وقد جعلوا على مقدمتهم ابن هنغري وفليب بن الرقيق ، وهما فارسا الفرنج في وقتهما ، فرحل نور الدين نحو هذين المقدمين ليلقاهما ومن معهما قبل أن يلتحق بهما باقي الفرنج ، فلما قاربهما رجعا القهقري واجتمعا وباقي الفرنج ، وسلك نور الدين وسط بلادهم يفتح القرى ، وأقام ينظر حركة الفرنج فلم يبرحوا مكانهم .

لكن إحدى سرايا نور الدين انتصرت على سرية من سرايا الصليبيين ، وكانت هذه السرية بقيادة شهاب الدين إلياس ، وكان قد

(١) الكامل ١٠٥/٩ ، وانظر البداية والنهاية ٢٧٩/١٢ .

سار إلى نور الدين ومعه مئتا فارس فصادف ثلاثمائة فارس من الصليبيين ، فاقتتلوا واشتد القتال ، وصبر الفريقان وكثر القتلى بين الطائفتين ، فانهزم الصليبيون ، وعمهم القتل والأسر ، ولم يفلت منهم إلا من لا يعتد به (١) .

حملة تآديبية للصليبيين :

ومن أعمال نور الدين الجهادية تلك الحملة التآديبية التي قام بها لتأديب الفرنج لما استولوا على مركبين تجارين للمسلمين ، فقد قام بحملة واسعة فيما تبقى من أملاكهم حتى خضعوا وسلّموا ما أخذوا بذلّة وصغار (٢) .

وهذا موقف جليل في إظهار عزة دولة الإسلام وحماية مصالح المسلمين .

مواقف نور الدين الأخلاقية :

أما مواقف السلطان نور الدين الأخلاقية في مجالات العدل والورع وخشية الله تعالى فهي كثيرة مشهورة فمن ذلك ما ذكره المؤرخ ابن الأثير في بيان ورع السلطان نور الدين حيث يقول : حكى لي من أثق به أنه دخل يوما إلى خزانة المال فرأى فيها مالا أنكره ، فسأل عنه ، ف قيل : إن القاضي كمال الدين أرسله ، وهو من جهة كذا وكذا ، فقال : إن هذا المال ليس لنا ، ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء ، وأمر بإعادته إلى كمال الدين ليرده إلى صاحبه ، فأرسله متولي الخزانة

(١) الكامل ١٠٦/٩ .

(٢) الكامل ١١٣/٩ .

إلى كمال الدين ، فردّه إلى الخزانة مرة أخرى وقال : إذا سأل الملك العادل عنه فقولوا له عني : إنه له ، فدخل نور الدين إلى الخزانة مرة أخرى فرآه فأنكر على النواب وقال : ألم أقل لكم : يعاد هذا المال إلى أصحابه ؟! فذكروا له قول كمال الدين فردّه إليه وقال للرسول : قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذا المال ، وأما أنا فرقبتي دقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى ، يُعاد قولاً واحداً^(١).

فهذا الخبر فيه مثل مما كان يتصف به السلطان نور الدين من الورع وخشية الله تعالى والتخري في الأموال واتقاء الشبهات ، فبالرغم من أن ذلك المال قد أتى من طريق القاضي كمال الدين الشهرزوري - وهو المعروف بعلمه وتقواه - فإن نور الدين قد رفض قبوله ، لأنه قد دخل مجال الشبهات فخاف من أن يحاسب عليه يوم القيامة .

ومن أخبار عدل السلطان نور الدين وتواضعه أنه طُلب مرة من أحد المدّعين عليه فقال أحد كبار موظفيه مستهزئاً : يقوم المولى إلى مجلس الحكم !! فأنكر نور الدين على الرجل سخريته وقال : تستهزئ بطلبي إلى مجلس الحكم ؟ ثم قال : يُحضّر فرسي حتى نركب عليه ، السمع والطاعة قال الله تعالى ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١] ، ثم نهض وركب حتى دخل باب

(١) نور الدين محمود / ١٠٣ للدكتور عماد الدين خليل نقلا عن التاريخ الباهر لابن

المدينة ، واستدعى أحد أصحابه وقال : امض إلى القاضي وسلم عليه
وقل له : إني جئت ههنا امثالاً لأمر الشرع (١) .

وهذا موقف عال من نور الدين بين فيه إخلاصه وتجرده من حظ
النفس وخضوعه التام لشريعة الله تعالى ، فهو لم يستنكف عن
الحضور بين يدي القاضي حينما قامت عليه الدعوى ، بل استسلم
لأمر الله جل وعلا وأمر رسوله ، وقد أعاد بذلك سيرة الصحابة رضي
الله عنهم ، حيث كان أمراؤهم يحضرون مع خصومهم عند القاضي
كأي إنسان آخر .

ولقد كان في يوم من الأيام يلعب بالكرة في دمشق فرأى رجلاً
من أتباعه يحدث آخر ويومئ بيده إليه ، فأرسل إليه يسأله عن حاله ،
فأعلمه أن له مع نور الدين خصومة حول بعض الأملاك ، وطلب
حضوره إلى مجلس القضاء للفصل في المسألة ، فتردد الغلام في
عرض الموضوع على نور الدين ولكن هذا ألح عليه ، فلما تبين له
الأمر ألقى العصا من يده وخرج من الميدان ، وسار إلى القاضي كمال
الدين وقال له : إنني قد جئت محاكماً فاسلك معي ماتسلكه مع
غيري ، فلما حضر المدعي ساوياً كمال الدين بينه وبين خصمه ، وإذا
لم يثبت ضده شيء قال للقاضي ولكافة الحضور ، هل ثبت له عندي
حق؟ قالوا : لا ، قال : اشهدوا أنني قد وهبت له هذا المال الذي
حاكمني عليه ، وقد كنت أعلم أنه لاحق له عندي ، وإنما حضرت
معه لئلا يظن أنني ظلمته ، فحيثما ظهر أن الحق لي وهبته إياه .

(١) نور الدين محمود / ٧٩ ، نقلاً عن الروضتين لأبي شامة ٢٦/١/١ - ٢٧ .

قال ابن الأثير : تلك هي غاية العدل والإنصاف بل غاية الإحسان ، وهي درجة وراء العدل (١) .

وهكذا رأينا السلطان نور الدين يضرب مثلاً عالياً في الخضوع لشرعية الله تعالى ، وذلك بسرعة الحضور عند القاضي حينما دعاه ، وقد كلل هذه المأثرة العالية في العدل بمأثرة أخرى في الإحسان حينما تنازل عن الحق الذي خوصم فيه لمخاصمه مع ثبوت حقه فيه ، وهذا مثل جيد في النزاهة والعفة .

ومن روائع السلطان نور الدين في القضاء وإجراء العدالة والإنصاف من الأمراء والقادة إنشاء « دار العدل » في دمشق ، وكان سبب إنشائها تزايد سلطان عدد من كبار الأمراء وتجاوز بعضهم حقوق بعض وعدم خضوع بعضهم لسلطة الحاكم الشرعي ، فلما علم بذلك نور الدين أمر ببناء دار العدل ، يقول ابن الأثير : فلما سمع شيركوه (٢) ذلك أحضر نوابه جميعهم وقال لهم : اعلموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي ، وإلا فمن هو الذي يمتنع على كمال الدين (٣) والله لئن حضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبته ، فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة في ملك فافصلوا الحال معه وأرضوه بأي شيء أمكن ولو أتى على جميع ما بيدي ،

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٢٥ ، وانظر « نور الدين محمود / ٧٩ عن الباهر لابن الأثير ١٦٦ - ١٦٧ .

(٢) هو أسد الدين شيركوه كبير أمراء نور الدين وهو الذي استولى على مصر وقضى فيها على الصليبيين والعبديين .

(٣) هو قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري .

فقالوا له : إن الناس إذا علموا هذا اشتطوا في الطلب ، فقال :
خروج أملاكي من يدي أسهل عندي من أن يراني نور الدين بعين أني
ظالم ، أو يساوي بيني وبين آحاد العامة في الحكومة - أي القضاء - ،
فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم ، وأرضوا خصماءهم وأشهدوا
عليهم ، فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات
فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين ، فعرفه الحال فقال : الحمد
لله إذ أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا (١) .

وهكذا كان نور الدين موفقا في إنشاء محكمة عليا يتولى هو فيها
الحكم على أمرائه الذين قد لا يتمكن الحاكم الشرعي من السير في
إجراءات الحكم عليهم .

لقد كان التفكير في إنشاء دار العدل في غاية الروعة والسمو ،
حيث أصبح بإمكان نور الدين أن ينصف جميع المظلومين من ظالمهم
وإن كانوا من أصحاب المناصب الكبيرة ، وكان مجرد إنشاء هذه الدار
كافيا لإيقاف الظالمين من الولاة عن الظلم خشية أن يُستدعوا إلى تلك
الدار فيوقفوا مع أصحاب الحقوق .

وهكذا يكون العدل الكامل ، إن كمال العدل لا يكون بإنصاف
المظلومين من الظالمين الضعفاء أو المتوسطين فقط ، وإنما يكون بشمول
العدالة والإنصاف من جميع الناس وإن كانوا من الكبراء المتجبرين .

ويقول أبو شامة في بيان عدالة السلطان نور الدين : « وكان نور
الدين يجلس في دار العدل . . ويأمر بإزالة الحاجب والبواب ، حتى

(١) نور الدين محمود / ٧٦ نقلًا عن الباهر لابن الاثير / ١٦٨ .

يصل إليه الضعيف والقوي والفقير والغني ، ويكلمهم بأحسن الكلام ، ويستفهم منهم بأبلغ النظام ، حتى لا يطمع الغني في دفع الفقير بالمال ، ولا القوي في دفع الضعيف بالقال ، ويحضر في مجلسه العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى خصمها ولا المكاملة معه ، فتغلب خصمها طمعا في عدله ، ويعجز الخصم عن دفعها من عدله ، فيظهر الحق عنده ، فيجري الله على لسانه ما هو موافق للشرعية ، ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الأمور الغامضة ، فلا يجري في مجلسه إلا محض الشريعة » (١) .

وهكذا كانت إشاعة العدل سببا في تقوية الضعفاء حتى يأخذوا حقهم غير متعتين ولا خائفين ، كما أنها كانت سببا في إضعاف الأقوياء الذين تميل نفوسهم نحو الظلم ، فيحصل من ذلك ارتداعهم عن التفكير في الظلم ، وبهذا تقلص قضايا الاعتداءات ، ويعيش الناس في أمن وأمان .

ومن ذلك ما ذكره المؤرخ ابن الأثير عن رضيع الخاتون زوجة نور الدين قال : إنها قلتَ عليها النفقة ولم يكفها ما كان قد قرره لها ، فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها [أي مخصصاتها المالية] ، فلما قلت له ذلك تنكر واحمر وجهه ، ثم قال : من أين أعطيها أما يكفيها مالها ؟ والله لا أخوض نار جهنم في هواها ، إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظن !! إنما هي أموال

(١) نور الدين محمود للدكتور عماد الدين خليل ٧٦ - ٧٧ عن الروضتين ٣٣/١/١ والباهر / ١٦٨ والبداية ٢ / ٢٨٠ .

المسلمين ومُرصدة لمصالحهم ومعدة لفتق - إن كان - من عدو الإسلام، وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها ، ثم قال : لي بمدينة حمص ثلاث دكاكين ملكا قد وهبتها إياها فلتأخذها .

قال الرضيع : وكان يحصل منها قدر قليل نحو عشرين دينار^(١) .

فهذا مثل من ورع السلطان نور الدين وعدله، فهو يشبه بعدله وورعه وزهده بأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى، فقد غضب نور الدين لما سألته زوجته زيادة في مخصصاتها المالية، وتذكر حالاً نار جهنم ، وهذا دليل على قوة إيمانه وعظمة خشيته من الله جل وعلا .

ولقد كان عظيم الاهتمام بالعدل وتمكين المظلومين من إنهاء قضاياهم إليه ، ذكر ابن قاضي شهبة أنه كان يقول : حرام على كل من صحبني ولا يرفع إلي قصة مظلوم لا يستطيع الوصول إليّ ، ويقول خادمه شاذ بخت الطواشي الذي كان أحد نوابه في حلب : كنت يوماً أنا ورجل واقفين على رأس نور الدين وقد صلى المغرب وجلس وهو مفكر فكرا عظيما ، وجعل ينكش بإصبعه الأرض، فعجبنا من فكره وقلنا : في أي شيء يفكر ، في عائلته أو في وفاء دينه ؟! وكأنه فطن بنا فرفع رأسه وقال : ماتقولان ؟ فأجبناه بعد تردد ، فقال : والله إنني أفكر في والٍ وليته أمور المسلمين فلم يعدل فيهم ، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وإخواني ، وأخاف المطالبة بذلك أمام الله ، فيالله عليكم - وإلا فخبزي عليكم حرام - لاتريان قصة مظلوم

(١) الكامل في التاريخ ١٢٥/٩ وانظر « نور الدين محمود / ٤٠ نقلا عن الباهر / ١٦٤ .

لاترفع إليّ ، أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها وارفعها إلي (١) .

ففي هذا الخبر نجد نور الدين يستغرق طويلا في التفكير في أمور رعيته ، ويخشى من الله جل وعلا أن يحاسبه على الظلم الذي يقع على أفراد رعيته من ولاته ، وهذا يعني أنه قد تحرى العدل في حكمه المباشر ، ولكنه يخشى أن لا يستقيم على ذلك ولاته ، فيكون مشاركا لهم فيما يقع منهم من ظلم ، فكان لذلك همه الكبير واستغراقه في التفكير ، وهذا يجعله في الطريق المستقيم نحو النجاة من عذاب الله تعالى والظفر بنعيمه .

وكان رحمه الله عظيم الشوق إلى الجهاد ، يحب أن يظل دائما مرابطا في سبيل الله تعالى ، وحينما ذهب إلى الموصل غادرها بعد عشرين يوما من دخولها عام ستة وستين وخمسمائة فقال له أصحابه : إنك تحب الموصل والمقام بها ونراك أسرعت العود ؟ فقال : قد تغير قلبي فيها فإن لم أفارقها ظلمت !! ويعني أيضا أنني ههنا لا أكون مرابطا للعدو وملازما للجهاد (٢) .

ويقول أبو شامة : سمعت ابن شداد يقول : بلغنا بأخبار التواتر عن جماعة يعتمد على قولهم أنه - يعني نور الدين - كان أكثر الليالي يصلي ويناجي ربه مقبلا بوجهه عليه ، ويؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها . وكان كفار القدس يقولون : إن نور الدين له مع الله سر ، فإنه

(١) نور الدين محمود / ٧٥ نقلا عن الكواكب الدرية / ٢٥ .

(٢) نور الدين محمود / ٤٥ ، نقلا عن الباهر لابن الأثير ١٥٣-١٥٤ .

ما يظفر علينا بكثرة جنده وعسكره ، وإنما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل ، والله يستجيب دعاءه ويعطيه سؤله وما يرد يده خائبة فيظفر علينا (١) .

وهكذا كان اهتمام نور الدين موجهًا إلى الجهاد في سبيل الله تعالى ، فهو يسعد ببقائه في البلاد التي يعتبر نفسه فيها مرابطًا للجهاد ، ولا يحب البقاء في البلاد التي تحول بينه وبين الجهاد وإن كان في قرارة نفسه يحبها .

وفي الخبر الثاني تبين لنا سرٌّ من أسرار نجاح نور الدين في أكثر الحروب التي خاضها ، ولقد أدرك الأعداء هذا السر لأنهم لهم خلفية دينية ، فهم من أهل الكتاب وقد ورثوا من أنبيائهم عليهم السلام بيان أهمية الصلاة ودعاء الله عز وجل في حصول النصر ، فعزّوا سبب انتصار نور الدين الحربي إلى كثرة عبادته واتصاله بالله جل وعلا ، والحق ما شهدت به الأعداء .

ومما يبين اهتمام نور الدين بالدعاء أن أصحابه قالوا له يوما : إن لك إدارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء ، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل ، فأجابهم غاضبا : والله إني لأرجو النصر إلا بأولئك فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم ، كيف أقطع صلّات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهامٍ لا تخطئ ، وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا إذا رأيته بسهامٍ قد تخطئ وقد

(١) نور الدين محمود / ٤٥ عن الروضتين ٣٤ / ١ / ١ .

تصيب ؟ ! ثم إن هؤلاء القوم لهم نصيب من بيت المال أصرفه إليهم فكيف أعطيه لغيرهم ؟ (١) .

فهذا الخبر يدل على فهم السلطان نور الدين الشامل لمقاصد الإسلام ، وعلمه الراسخ بأسباب النصر الحقيقية ، فهو يجيب مستشاريه الذين أشاروا عليه بمنع المخصصات المالية عن العلماء والعباد وصرفها إلى الجهاد والمجاهدين . . يجيبهم بأن الصرف على أولئك المتقين إنما هو بالدرجة الأولى صرف على الجهاد لأن أولئك المتقين يملكون سلاح الليل الذي لا يملكه غيرهم من الغافلين ، ألا وهو الدعاء .

والدعاء المشروع إذا صدر من قلوب مخلصة مخبئة إلى الله تعالى فإنه يَمْضِي في الأعداء أشد من السيوف البواتر والسهام المسددة ، والقادة من أصحاب التوفيق المسدد من الله تعالى والفكر الثاقب والوعي العميق لا يُغفلون سلاح الدعاء ، بل يجعلونه في مقدمة عوامل النصر الحقيقية ، فيكثرون من الدعاء ، ويرغبون من الصالحين أن يدعوا لهم بالنصر على أعدائهم ، فيصلون بإذن الله تعالى إلى النتائج الباهرة من النجاح في مقاصدهم .

ومما يدل على اهتمام السلطان نور الدين بالاعتناء بسنة رسول الله ﷺ في الأمور الجهادية ما ذكره الشيخ أبو البركات : أنه حضر مع عمه الحافظ أبي القاسم مجلس نور الدين لسماع شيء من الحديث ، فمرَّ أثناء الحديث أن النبي ﷺ خرج متقلدا سيفاً ، فاستفاد نور الدين

(١) نور الدين / ١٠٩ ، نقلا عن الباهر ١١٨ ، والكامل لابن الأثير ٢٩٦/١١ .

أمرا لم يكن يعرفه وقال : كان رسول الله ﷺ يتقلد السيف !! يشير إلى التعجب من عادة الجند إذ هم على خلاف ذلك لأنهم يربطونه بأوساطهم ، فلما كان من الغد مرَّ وأنا تحت القلعة والناس مجتمعون ينتظرون ركوب السلطان ، فوقفنا ننظر إليه ، فخرج من القلعة وهو متقلد السيف وجميع عسكره كذلك .

ويقول ابن قاضي شهبة في التعليق على هذه الحادثة : رحم الله هذا الملك الذي لم يفرط في الاقتداء بالنبي ﷺ بمثل هذه الحالة ، بل لما بلغته رجع بنفسه ورد جنده عن عوائدهم اتباعا لما بلغه عن نبيه ﷺ ، فما الظن بغير ذلك من السنن ؟! (١) .

هذا وإن الاقتداء بالنبي ﷺ في هذا الأمر الصغير من السلطان نور الدين يدلنا على كمال اقتدائه به في الأمور الكبيرة ، ومن هذا الخبر نلمح شدة اهتمام نور الدين بالعمل الصالح وتطبيق السنة ، فهو يستمع للدروس العلمية لآمن أجل متعة الفكر ولآمن أجل الذكر بين الناس ، وإنما ليستفيد العلم من أجل العمل ، وهذا هو منهج الصحابة رضي الله عنهم في طلب العلم وتعليمه .

* * *

(١) نور الدين محمود / ٨٩ نقلا عن الكواكب الدرية / ٤٠ - ٤١ .

٤ - جهاد أسد الدين شيركوه -

في عهد السلطان العادل نور الدين محمود كان للأمير أسد الدين شيركوه بن شادي الأيوبي في جهاد الصليبيين في مصر جهود طيبة .

وكان سبب ذلك - على ما ذكره المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة تسع وخمسين وخمسمائة - أن شاور بن الخياط وزير العاضد لدين الله العبيدي صاحب مصر ، نازعه في الوزارة ضرغام وغلبه عليها ، فجاء شاور إلى نور الدين وطلب منه أن يمدّه بجيش يستعيد به وزارته في مقابل أن يكون تابعا له ويبعث له ثلث دخل البلاد ، وأن يبقى أسد الدين عندهم بجيشه ، فشجعه على الاستجابة رغبته في التقوي على الصليبيين حينما يحيط بهم جيش من الشام وجيش من مصر ، وقد كان أسد الدين راغبا في ذلك لما عرف عنه من الشجاعة والإقدام ، فوجهه نور الدين إلى مصر ، فكانت مواجهةً بينه وبين ناصر الدين أخي ضرغام فانهزم ناصر الدين وعادت الوزارة لشاور ، إلا أن شاور غدر بأسد الدين ولم يف بشيء مما وعد به ، فانحاز أسد الدين إلى بلبيس ، وأرسل شاور إلى الصليبيين يستمدّهم ويخوفهم من نور الدين إن استولى على مصر ، فجاؤوا من بلاد الشام وأحاطواهم وجيش المصريين بأسد الدين في بلبيس ، ولكنه استطاع أن يتحصن منهم بتلك المدينة رغم ضعف أسوارها ، وكان يخرج لقتالهم بجيشه ثم يتحصن ، وقد بقي على ذلك ثلاثة أشهر إلى أن بلغ الصليبيين أن نور الدين قد استولى على قلعة حارم التي هي من أمتع حصونهم ، فطلبوا الصلح مع أسد الدين على أن يسلم ما بيده إلى المصريين ، ولم

يكن يعلم بما جرى لهم في الشام ، إضافة إلى أن الأقوات والذخائر
قلَّت عنده كثيرا .

قال ابن الأثير: وخرج من بلبس في ذي الحجة ، فحدثني من رأى
أسد الدين حين خرج من بلبس قال: أخرج أصحابه بين يديه ، وبقي
في آخرهم وبيده لَتٌ من حديد ، يحمي ساقاتهم ، والمسلمون والفرنج
ينظرون إليه ، قال : فأتاه فرنجي من الغرباء الذين خرجوا من البحر
(١) فقال له : أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنج وقد
أحاطوا بك وبأصحابك ولا يبقى لكم بقية !! فقال شيركوه : ياليتهم
فعلوه حتى كنت ترى ما أفعله ، كنت والله أضع السيف فلا يُقتل منا
رجل حتى يقتل منهم رجال ، وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين
وقد ضعفوا وفني شجعانهم فنملك بلادهم ونهلك من بقي .

قال الفرنجي : كنا نعجب من فرنج هذه البلاد ومبالغتهم في
صفتك وخوفهم منك ، والآن فقد عذرناهم .

ثم رجع عنه وسار شيركوه إلى الشام فوصل سالما ، وكان الفرنج
قد وضعوا له في الطريق رسداً ليأخذوه أو ينالوا منه ظفرا ، فعلم بهم
فحاد عن ذلك الطريق ، ففيه يقول عمارة :

أخذتم عن الإفرنج كل ثنية

وقلت لأيدي الخيل مُرِّي على (مَرِّي)

لئن نصبوا في البر جسرا فإنكم

عبرتم ببحر من حديد على الجسر

(١) وهم الذين جاؤوا لزيارة بيت المقدس فاستعان به الصليبيون على القتال .

ولفظة (مَرِّي) في آخر البيت الأول اسم ملك الفرنج (١).

فهذا الخبر فيه مثل من خيانة بعض أمراء المسلمين آنذاك ووزرائهم حيث كانوا يتحالفون مع الصليبيين ضد المسلمين ، وقد كان هؤلاء أشد بلاء على الأمراء المخلصين للإسلام من الصليبيين أنفسهم ، وهذا الوزير وأمثاله كانوا من حكام الدنيا ، ولم يكن يهمهم أمر الدين .

أما موقوف أسد الدين فقد كان مجيدا حيث ثبت للصليبيين وحلفائهم من المسلمين ثلاثة شهور ، ولم يستسلم لهم ولم يطلب منهم الصلح .

وفي حواره مع ذلك الصليبي تصوير رائع لشجاعة المسلمين ، واستهانتهم بالمهالك في سبيل خدمة دينهم .

وفي آخر الخبر مثل من دقة الرصد الحربي عند المسلمين ، حيث أراد الأعداء إهلاك المسلمين أو إضعافهم بالكمين الذي وضعوه لهم ليأخذوهم على غرة ، ولكن طلائع المسلمين اكتشفوهم فسلكوا طريقا آخر ، وفوتوا على الصليبيين تلك الفرصة .

معركة البابين :

ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة اثنتين وستين وخمسمائة خبر مسير أسد الدين شيركوه إلى بلاد مصر حيث قال : فلما كان هذه السنة تجهز وسار في ربيع الأول في جيش قوي ، وسير معه نور الدين جماعة من الأمراء ، فبلغت عديتهم ألفي فارس ، وكان كارها

(١) الكامل ٨٤/٩ - ٨٦ .

لذلك ، ولكن لما رأى جدُّ أسد الدين في المسير لم يمكنه إلا أن يُسيرَ معه جمعا خوفا من حادث يتجدد عليهم فيضعف الإسلام ، فلما اجتمع معه عسكره سار إلى مصر على البر وترك بلاد الإفرنج على يمينه ، فوصل إلى الديار المصرية ، فقصد طفيح وعبر النيل عندها إلى الجانب الغربي ، ونزل بالجيزة مقابل مصر ، وتصرف في البلاد الغربية ، وحكم عليها ، و أقام نيفا وخمسين يوما .

وكان شاور [ابن الخياط] لما بلغه مجيء أسد الدين إليهم قد أرسل إلى الإفرنج يستمدهم فأتوه على الصعب والذلول طمعا في ملكها ، وخوفا أن يملكها أسد الدين فلا يبقى لهم في بلادهم مقام معه ومع نور الدين ، فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم .

فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي ، وكان أسد الدين وعساكره قد ساروا إلى الصعيد ، فبلغ مكانا يعرف بالباين ، وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءه فأدركوه بها في الخامس والعشرين من جمادى الأولى .

قال ابن الأثير في سياق روايته : وكان [يعني أسد الدين] أرسل إلى المصريين والفرنج جواسيس فعادوا إليه وأخبروه بكثرة عددهم وعُددهم وجِدُّهم في طلبه ، فعزم على قتالهم إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن القتال في هذا المقام الخطر الذي عَطَّبُهم فيه أقرب من سلامتهم ، لقلة عددهم وبُعدهم عن أوطانهم وبلادهم وخطر الطريق ، فاستشارهم ، فكلهم أشار عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام ، وقالوا له : إن نحن انهزمنا -

وهو الذي يغلب على الظن - فإلى أين نلتجئ وبمن نحتمي وكل من
في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدو لنا ؟

فقام أمير من ممالك نور الدين يقال له شرف الدين برغش
صاحب شقيف وكان شجاعا . . . ثم ذكر كلامه في الحث على
الثبات والإقدام على قتال الأعداء .

قال : فقال أسد الدين : هذا الرأي وبه أعمل ، وقال ابن أخيه
صلاح الدين مثله ، وكثر الموافقون لهم ، واجتمعت الكلمة على
القتال .

فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبئة ، وجعل
الاثقال في القلب يتكثر بها ، وجعل صلاح الدين في القلب ، وقال
له ولمن معه : إن المصريين والفرنج يجعلون حملتهم على القلب ظنا
منهم أنني فيه ، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ، ولا تهلكوا
نفوسكم ، واندفعوا قدامهم بين أيديهم ، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في
أعقابهم ، واختار هو من شجعان عسكره جمعا يثق بهم ويعرف
صبرهم في الحرب ، ووقف بهم في الميمنة ، فلما تقابلت الطائفتان
فعل الفرنج ماذكره وحملوا على القلب ، فقاتلهم من به قتالا يسيرا
وانهزموا بين أيديهم غير متفرقين ، ومعهم الفرنج ، فحمل حينئذ أسد
الدين فيمن معهم على من تخلف من الذين حملوا من المسلمين
والفرنج ، الفارس والراجل فهزمهم ووضع السيف فيهم فأتخن وأكثر
القتل والأسر ، فلما عاد الفرنج من أثر المسلمين رأوا عسكرهم
مهزوما والأرض منهم قفرا فانهزموا أيضا .

وكان هذا من أعجب ما يُؤرَّخ أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر
وفرنج الساحل (١).

في هذا الخبر مثل من الشجاعة الفائقة والخطط الحربية الناجحة ،
فقد صمد ألفان لجيش يفوقهم عدة أضعاف في العدد والعدد وتغلبوا
عليهم ، ولقد كان من أسباب هذا التفوق أن جيش أسد الدين كانوا
يقاتلون عن إخلاص لقضيتهم ، فكانوا يبذلون قدراً كبيراً من
طاقاتهم .

ومن أسباب ذلك ما قام به أسد الدين من إعداد تلك الخطة
الحربية الرائعة التي فرقت قوة الأعداء وشلّت من حركتهم ، فقد كان
لها الأثر الأكبر في انتصاره وخذلان أعدائه .

ولايغيب عن البال أن الذين حضروا المعركة من المصريين كانوا من
النفعيين الذين رضوا بأن يقفوا مع الصليبيين في صف واحد ، أما
أهل الاستقامة فإنهم مبعدون عن إدارة الأمور والمشاركة في الحروب
لفساد الحكم آنذاك ، ومما يدل على ذلك أنه لما توجه أسد الدين إلى
الاسكندرية ساعده أهلها وتسلمها بدون قتال ، لأنهم يتمنون حكمه
بدلاً من حكم عملاء الصليبيين ، وحينما حاصرها الصليبيون
وعملأوهم صمد أهلها مع صلاح الدين ثلاثة أشهر وكان أسد الدين
قد أنابه عليها (٢) .

ولقد كان للمسلمين المصريين الصادقين مواقف عالية في نصره

(١) الكامل ٩٤/٩ - ٩٥ .

(٢) الكامل ٩٥/٩ .

الإسلام والمسلمين ، فعلى يد جيشهم - بالدرجة الأولى - تم دحر التتار الذين عاثوا فساداً في بلاد الإسلام بقيادة قطز في معركة عين جالوت ، وبمشاركتهم الفعالة تم القضاء على الصليبيين في الشام بقيادة صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين .

ومع هذا الانتصار الكبير لأسد الدين فإنه قد رحل بجيشه عن مصر ، ولعل سبب ذلك قلة جيشه حيث لا يمكن من إبقاء حوامي في البلاد التي يستولي عليها ، لكنه عاد بجيشه بعد سنتين إلى مصر لما قوي أمر الصليبيين فيها ، وكانوا قد أبقوا بعض شجعانهم في مصر يشرفون على الحكم فيها ويتولون جباية الأموال المقررة لهم على أهل مصر ، وقد حكموا على المسلمين حكماً جائراً وأذوهم أذى شديداً .

ولما رأى هؤلاء النصارى ضعف الحكم في مصر كاتبوا أمير النصارى في الشام وهو « مَرِي » وهو من أشدهم شجاعة ومكرًا ودهاء ، فزينوا له غزو مصر لخلوها من المدافعين عنها ، وقد فهم لدهائه أن ذلك خطر على النصارى في الشام ، لأن ذلك يُحرّض نور الدين عليهم ، وأنه لو أرسل أسد الدين إليها لكان هلاك النصارى في الشام لأن نور الدين سيفزوهم من الشمال والشرق وأسد الدين سيفزوهم من الجنوب ، ولكنه لم يستطع إقناع كبراء دولته الذين أصروا على غزو مصر بحجة أنهم سيملكونها قبل أن يتحرك نور الدين . وَجَدَ النصارى في السير إلى مصر ، واستولوا على بعض بلادها ، وكان أمير مصر العاضد العبيدي ، ووزيره شاور وهو الذي بيده الحكم .

وأرسل العاضد إلى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع النصارى ، وأرسل في الكتب شعور النساء ، وقال : هذه شعور نسائي من قصري يستغن بك لتتقدم من الفرنج ، فشرع في تسيير الجيوش وكان قبل ذلك قد علم بتحرك الفرنج فبدأ يضم جيوشه إليه .

أما الفرنج فإنهم اشتدوا في حصار القاهرة وضيقوا على أهلها ، فراسلهم شاور وذكر لملك الفرنج مودته لهم وخوفه من أن يقدم جيش نور الدين فيستولي على مصر ، واتفقا على الصلح على أن يدفع شاور للفرنج ألف ألف دينار ويرجعون إلى بلادهم ، فاستطاع أن يعطيهم مائة ألف واستمهلهم في البقية حتى يجمعه من الناس ولكنه لم يستطع ذلك لأنه كان قد أحرق بلادهم حتى لا يستولي عليها الفرنج فذهبت أموالهم .

وقد توالى كتب أهل مصر إلى نور الدين يستمدونه ويطلبون منه إنقاذهم من الصليبيين ، فبعث إلى أسد الدين ليؤليه على جيش مصر وكان في حمص حيث كان واليا عليها ، فما شعر به نور الدين إلا وهو على أبواب حلب ففرح نور الدين بقدومه وتفاءل من ذلك ، وكان أسد الدين قد وصلتته أيضاً كتب استغاثة من مصر ، فأمر نور الدين بتجهيز الجيش ، وأعطى أسد الدين مائتي ألف دينار للإنفاق على الجيش سوى الثياب والدواب والأسلحة وغير ذلك ، وأعطاه حرية التصرف في إدارة الجيش ومواجهة الأعداء ، واختار من العسكر ألفي فارس إلى جانب ستة آلاف من غيرهم ، وبعث معه نور الدين

عددًا من الأمراء ، ومنهم صلاح الدين بن يوسف ابن أخي أسد الدين وكان صلاح الدين كارها لذلك المسير لما واجهه من الأهوال حينما حوَّصر في الإسكندرية، ولكن نور الدين ألزمه بالمسير مع عمه .

وسار أسد الدين مُجدًا مُتصِفَ شهر ربيع الأول ، من عام أربعة وستين وخمسمائة ، فلما قارب مصر رحل الفرنج إلى بلادهم بخُفْيٍ حين خائبين، وسمع بذلك نور الدين ففرح به وأمر بضرب البشائر في البلاد ، واعتبر رجيلهم فتحًا وهزيمة كبرى لهم .

ووصل أسد الدين إلى القاهرة واجتمع بأميرها العاضد وفرح به أهل مصر .

أما شاور بن الخياط وزير حاكم مصر فإنه ساءه مجيء أسد الدين شيركوه وعزم على دعوته ثم القبض عليه ، فنهاء ابنه الكامل وقال له : والله لئن عزمت على هذا الأمر لأُعرِّفَنَّ شيركوه ، فقال له أبوه : والله لئن لم نفعل هذا لنُقتلنَّ جميعا ، فقال : صدقت ولأنَّ نقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية خير من أن نُقتل وقد ملكها الفرنج ، فإنه ليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه ، وحيثُ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل معه فارسا واحداً ويملكون البلاد ، فترك شاور ماكان عزم عليه .

ولعل أمراء أسد الدين عرفوا بماعزم عليه شاور فعزم بعضهم على قتله وعلى رأسهم صلاح الدين فنهاهم عن ذلك أسد الدين ، ولكنهم ظلوا على عزمهم ، وانتهزوا فرصة مجيئه مع حاشيته يسأل عن أسد الدين فأخبروه أنه ذهب لزيارة قبر الإمام الشافعي فسأله صلاح الدين

ومن معه وألقوه عن فرسه وهربت حاشيته فأخذوه أسيراً ولم يمكنهم قتله إلا بعد إذن أسد الدين فحضر ولم يمكنه إلا إتمام مابدؤوا به .

وسمع بذلك أمير مصر العاضد فطلب رأس شاور وتابع الرسل في ذلك فقتل وأرسل إليه رأسه في السابع عشر من ربيع الآخر، وتجمهر الناس فأمرهم العاضد بنهب دار شاور فانتهبوها .

وسار أسد الدين إلى قصر العاضد فقلده الوزارة ولقب المنصور أمير الجيوش ، وصار هو صاحب الأمر والنهي في مصر، ولكنه لم يمهل طويلاً حيث توفي في يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة، وكانت ولايته شهرين وخمسة أيام (١) .

ففي هذا الخبر مواقف وعبر منها :

أولاً : أن الحاكم الصالح يحفظ الله تعالى به البلاد والعباد، ويحميهم بحسن تدبيره من شرور الأعداء ، ويتحقق على يديه الأمن والرخاء ، وذلك لأنه يختار لمؤازرته وتدبير أموره أهل الاستقامة والشجاعة والرأي السديد ، فيستخلص أفضل عناصر الأمة ليكونوا هم الذين يدبرون أمورها ويحمونها ، ففي السلم أمن ورخاء ، وحماية للضعفاء من ظلم الأقوياء ، فإذا دهم العدو البلاد قام الرجال الأكفاء لحمايتها وقدّوا أمتهم بأرواحهم وأموالهم .

أما الحاكم النفعي الذي لا يهتم إلا بمصالحه الخاصة فإنه يخشى من أهل الكمال والفضل لأنهم لا يوافقونه على تجاوزاته ، فيقرّب النفعيين من أمثاله الذين لا يهتمهم إلا بمصالحهم ، ويستوي عندهم أن يحكمهم

(١) الكامل لابن الأثير ٩٩/٩ - ١٠١ .

حاكم مسلم أو كافر، ففي السلم ظلم واعتداء على الآمنين، وتسلب من الأقوياء على الضعفاء ، فإذا دهم البلاد عدو فإن هؤلاء النفعيين لا يستطيعون حمايتها لأنهم متفرقون حيث لا يجمعهم هدف واحد مشترك ، بل هدف كل واحد منهم تأمين مصالحه الخاصة .

وهكذا كان وضع بلاد مصر في ذلك الزمن ، حيث استولى عليها الصليبيون دون مقاومة .

هذا الشعب العظيم الذي لم يستطع حماية بلاده من الصليبيين هو الذي كان له إسهام كبير في القضاء على الصليبيين في الشام بعد سنوات معدودات ، وكان الفارق بين الأمرين هو تغير السلطة الحاكمة، حيث انتقلت إدارة البلاد من العبّديين إلى الأيوبيين، وذلك بما قام به صلاح الدين الأيوبي من إبعاد النفعيين وتقريب أهل الكفاءة والأمانة .

ثانيًا : من حسنات نور الدين محمود أنه اختار أسد الدين شيركوه الأيوبي لقيادة جيوشه في عدة وقائع مع الصليبيين ، وكان شجاعًا مقداما ، ومع ذلك فإنه كان ذا رأي حصيف في تدبير الحروب، وقد طارت له سمعة عالية بين أعداء الإسلام من النصارى حتى صار اسمه مرعبا لهم ، ولا أدل على ذلك من قول الكامل بن شاور إنك إذا قبضت على شيركوه عاد الفرنج واستولوا على البلاد، فقد كان معلوما لدى المجتمع آنذاك أن جلاء الفرنج من مصر كان بسبب رعبهم من أسد الدين لشجاعته وطاعة جيشه له .

ثالثًا : موقف جليل للكامل بن شاور حيث نهى أباه عن تدبير

خطة للقبض على أسد الدين شيركوه وأبان له بأن مصلحة مصر
والإسلام في بقاء أسد الدين حتى لا يرجع الصليبيون إلى مصر،
وهذا يدل على إخلاصه للإسلام ولأُمته .

* * *

٥ - جهاد صلاح الدين الأيوبي -

هو صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي ، ولد بتكريت في العراق ، وانتقل به أبوه إلى الشام حيث أصبح أبوه من أمراء نور الدين محمود ، ثم أصبح صلاح الدين من قادته وشارك عمه أسد الدين شيركوه في القضاء على الصليبيين والبيديين في مصر ، إلى أن آل إليه حكم مصر بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه .

ولما توفي السلطان نور الدين محمود صار بين صلاح الدين وأبناء نور الدين نزاع حتى آل الأمر إلى ظهور صلاح الدين وشملت سلطنته مصر والشام والجزيرة وغيرها .

وكان رحمه الله عادلاً كريماً حليماً صبوراً على ما يكره ، ومن أخبار زهده وكرمه أنه مات ولم يخلف إلا ديناراً وأربعين درهماً ، مع سعة سلطانه (١) .

غزوه بلاد الفرنج وفتح أيلة :

ذكر المؤرخ ابن الأثير أن صلاح الدين الأيوبي سار في عام ستة وستين وخمسمائة من مصر وأغار على أعمال عسقلان وغزة وأتاه ملك الفرنج في قلة من العسكر مسرعين لرده عن البلاد فقاتلهم وهزمهم ، وأفلت ملك الفرنج بعد أن كاد أن يؤخذ أسيراً .

(١) الكامل ١٠٢/٩ ، ١٣٠ ، ٢٢٥ ، وكانت إمرته على مصر بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه ، وذلك في عام أربعة وستين وخمسمائة وذلك في أواخر حكم العاضد الحاكم البيدي الذي كان حاكماً بالاسم فقط ، ثم ضم صلاح الدين إلى حكمه الشام وغيرها بعد وفاة نور الدين إلى أن توفي في عام تسعة وثمانين وخمسمائة .

وعاد صلاح الدين إلى مصر فعمل مراكب مفصلة وحملها قطعاً على الجمال في البر ، وقصد أيلة ، فجمع قطع المراكب وألقاها في البحر ، وحصر أيلة براً وبحراً وفتحها في العشر الأول من ربيع الآخر (١) .

موقف لأهل الإسكندرية في صد حملة صليبية :

ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة سبعين وخمسمائة أن أسطولاً بحرياً حريباً خرج من صقلية لغزو مصر ، وهو مكون من مائتي سفينة تحمل الرجال وست وثلاثين تحمل الخيل ، إضافة إلى ستة مراكب كبار تحمل آلة الحرب وأربعين مركبا تحمل الأزواد ، وأن عدد المقاتلين خمسون ألفاً من الرجال وألف وخمسمائة من الفرسان ، وكانت تلك الحملة بقيادة ابن عم صاحب صقلية ، فوصلوا إلى الإسكندرية في السادس والعشرين من ذي الحجة عام تسعة وستين وخمسمائة على حين غفلة من أهلها وطمأنينة .

فخرج أهل الإسكندرية بسلاحهم وعدتهم ليمنعوه من النزول وأبعدوا عن البلد فمنعهم الوالي عليهم من ذلك وأمرهم بملازمة السور ، ونزل الفرنج إلى البر مما يلي البحر والمنارة ، وتقدموا إلى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات ، وقاتلوا أشد قتال ، وصبر لهم أهل البلد ولم يكن عندهم من العسكر إلا القليل ، ورأى الفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية وحسن سلاحهم ماراعهم .

وسيرت الكتب بالحال إلى صلاح الدين يستدعونه لدفع العدو

(١) الكامل ١١٠ / ٩ .

عنهم ، ودام القتال أول يوم إلى آخر النهار ثم عاود الفرنج القتال اليوم الثاني وجدوا ولازموا الزحف حتى وصلت الدبابات إلى قريب السور ، ووصل ذلك اليوم من العساكر الإسلامية كل من كان في أقطاعه وهو قريب من الإسكندرية فقيوت بهم نفوس أهلها وأحسنوا القتال والصبر ، فلما كان اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه على الفرنج من كل جانب وهم غارون وكثر الصياح من كل الجهات فارتاع الفرنج واشتد القتال فوصل المسلمون إلى الدبابات فأحرقوها وصبروا للقتال فأنزل الله نصره عليهم وظهرت أماراته، ولم يزل القتال إلى آخر النهار ودخل أهل البلد إليه وهم فرحون مستبشرون بما رأوا من تباشير الظفر وقوتهم وفشل الفرنج وفتور حربهم وكثر القتل والجراح في رجالتهم .

وأما صلاح الدين فإنه لما وصله الخبر سار بعساكره، وسير مملوكا له ومعه ثلاث جنائب ليجد السير عليها إلى الإسكندرية يبشر بوصوله، وسير طائفة من العسكر إلى دمياط خوفا عليها واحتياطا لها، فسار ذلك المملوك فوصل الإسكندرية من يومه وقت العصر والناس قد رجعوا من القتال فنادى في البلد بمجيء صلاح الدين والعساكر مسرعين، فلما سمع الناس ذلك عادوا إلى القتال وقد زال ما بهم من تعب وألم الجراح وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله .

وسمع الفرنج بقرب صلاح الدين في عساكره فسقط في أيديهم وزادوا تعباً وفتورا فهاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا إلى

خيامهم فغنموها بما فيها من الأسلحة الكثيرة والتحملات العظيمة ، وكثر القتل في رجالة الفرنج فهرب كثير منهم إلى البحر وقربوا شوانيهم إلى الساحل ليركبوا فيها فسلم بعضهم وركب ، وغرق بعضهم ، وغاص بعض المسلمين في الماء وخرق بعض شواني الفرنج فغرقت فخاف الباقون من ذلك فولوا هارين ، واحتفى ثلثمائة من فرسان الفرنج على رأس تل فقاتلهم المسلمون إلى بكرة ودام القتال إلى أن أضحى النهار فغلبهم أهل البلد وقهروهم فصاروا بين قتيل وأسير وكفى الله المسلمين شرهم (١) .

في هذا الخبر صورة جيدة للحروب الدفاعية الناجحة ، حيث استطاع أهل الإسكندرية بمعونة بعض أهل القرى المجاورة لهم أن يصدوا حملة بحرية كبيرة مجهزة بأقوى وأضخم العتاد الحربي . ولقد كان أهل الإسكندرية في غاية الشجاعة والإقدام حينما خرجوا لقتال جيش يفوقهم كثيرا في العدد والعدد ، ولقد أجادوا الخطة الحربية حينما باغتوا العدو وهم آمنون ، حيث لم يكن الأعداء يتوقعون أن أهل الإسكندرية يستطيعون مقاومتهم أو يتجرؤون على الخروج لقتالهم .

ونجد في هذا الخبر موقفا فدائيا في غاية الروعة حينما غاص في البحر بعض المغاوير من المسلمين وخرقوا بعض سفن الأعداء من تحتها فغرقوها ، فهذه عملية في منتهى الخطورة لما يتوقع من هجوم الأعداء بسلاح الرماية من فوق السفن .

(١) الكامل في التاريخ ١٢٩/٩ - ١٣٠ .

وهكذا استطاع هؤلاء الأبطال من المسلمين أن يشردوا حملة بحرية كبيرة كان الأعداء قد خططوا لها ليستولوا بها على مصر بعد أن أبادوا كثيراً من جنودها وعدداً كبيراً من الأسلحة الثقيلة ووسائل النقل .

وفي هذا الخبر مثل من تطبيق المسلمين لجهاد الفرض العيني ، وذلك فيما إذا دهم العدو دار الإسلام ، فإن الجهاد يجب على كل قادر في ذلك البلد ومن حوله حتى تحصل الكفاية في صد الأعداء .
موقعة حطين (١) :

خرج صلاح الدين من مصر إلى الشام ومعه جيش من مصر وعمن قدموا معه من الشام ، فلما وصل أرسل إلى بقية أطراف الشام وإلى المشرق يطلب اجتماع الجيوش لغزو الصليبيين ، فاجتمع لديه اثنا عشر ألف فارس من الجند الذين يتقاضون الرواتب سوى المتطوعة ، وذلك في عام ثلاثة وثمانين وخمسمائة .

واستشار صلاح الدين أمراءه في كيفية قتال الأعداء ، فأشار أكثرهم عليه بترك اللقاء ، وأن يُضعف الصليبيين بشن الغارات وإخرا ب الولايات مرة بعد مرة ، فقال صلاح الدين : الرأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار فإن الأمور لا تجري بحكم الإنسان ، ولانعلم قدر الباقي من أعمارنا ، ولا ينبغي أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجهد والجهاد .

ثم سار بجيشه حتى خلف طبرية خلف ظهره ، وتقدم حتى قارب

(١) هي قرية قرب طبرية وقعت حولها المعركة .

الصليبيين وهم في خيامهم لم يفارقوها، فأمر العسكر بالنزول، فلما جئ الليل جعل في مقابل الصليبيين من يمنعهم من القتال، وسار بطائفة من الجيش إلى طبرية وقاتل أهلها ونقب بعض أبراجها، وأخذ المدينة عنوة في ليلة، ولجأ من بها إلى القلعة التي لها فامتنعوا بها، وفيها أميرتها النصرانية ومعها أولادها .

فلما سمع الصليبيون بذلك اجتمعوا للمشورة فاستقر رأيهم على التقدم لقتال المسلمين، وهذا هو الذي أراده صلاح الدين من مهاجمة طبرية، وتقدموا حتى قربوا من معسكر المسلمين .

فلما سمع بذلك صلاح الدين عاد من طبرية، وكان المسلمون قد نزلوا على الماء، والزمان قيظ شديد الحر، فوجد الصليبيون العطش، ولم يتمكنوا من الوصول إلى ذلك الماء من المسلمين، وكانوا قد أفنوا ما هناك من الصهاريج، ولم يتمكنوا من الرجوع خوفاً من المسلمين، فبقوا على حالهم إلى الغد وهو يوم السبت وقد أخذ العطش منهم .

أما المسلمون فإنهم باتوا يحرض بعضهم بعضاً، وقد وجدوا ريح النصر والظفر، وكلما رأوا الصليبيين على خلاف عادتهم مما ركبهم من الخذلان زاد طمعهم وجراتهم، فأكثروا التكبير والتهليل طول ليلتهم، وكان السلطان صلاح الدين قد عبى جيشه ونظمه وجعل الرماة في المقدمة .

يوم المعركة :

أصبح صلاح الدين والمسلمون يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر، فركبوا وتقدموا إلى الصليبيين، فركب الصليبيون ودنا بعضهم

من بعض ، وأمر السلطان الرماة أن يرشقوا الأعداء بنبالهم ، وتبارز الشجعان ، ثم أمر السلطان بالتكبير والحملة الصادقة فحمل المسلمون على أعدائهم فاقتتلوا أشد قتال، وصبر الفريقان ، وأثنى رماة المسلمين في الأعداء فقتلوا كثيرا من خيولهم .

وتوجه الصليبيون نحو طبرية لعلهم يردون الماء، فلما علم صلاح الدين بمقصدهم صدهم عن مرادهم ، ووقف بالعسكر في وجوهم، وطاف بنفسه على المسلمين يحرضهم، والناس مطيعون له .

وقد حمل مملوك من ممالك صلاح الدين على الأعداء حملة قوية فقاتل قتالا عجب منه الناس، ثم تكاثر الأعداء عليه فقتلوه ، فعند ذلك حمل المسلمون حملة قوية وضععوا بها الكفار وقتلوا منهم كثيرا .

ولما اشتد القتال عليهم أدرك « القمص » حاكم طرابلس أنه لا طاقة لهم بقتال المسلمين فاتفق هو وجماعة وحملوا على من يليهم، وكان المقدم في تلك الناحية تقي الدين عمر بن أخي صلاح الدين، فأدرك أنهم منهزمون يريدون الفرار فأمر أصحابه أن يفتحوا لهم طريقا يخرجون منه .

فلما انهزم القمص فت ذلك في أعضادهم وكادوا يستسلمون ، ثم علموا أنه لا ينجيهم من الموت إلا الإقدام عليه ، فحملوا حملات متوالية كادوا يزيلون المسلمين - على كثرتهم - عن مواقفهم لولا لطف الله تعالى بهم .

وكان بعض المتطوعة قد ألقى في تلك الأرض نارا وكان الحشيش

كثيراً فاحترق ، وكانت الريح فحملت حر النار والدخان إلى الأعداء ،
فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال .

ولم ينفع الأعداء إقدامهم ومحاولة كسب المعركة لأنهم في كل
حملة يفقدون عدداً كبيراً منهم لشدة ثبات المسلمين وبسالتهم ، فوهن
الأعداء لذلك وهنا عظيماء ، فأحاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة
بقطرها ، فارتفع من بقي منهم إلى تل بناحية حطين ، وأرادوا أن
ينصبوا خيامهم ويحموا نفوسهم به فاشتد القتال عليهم من سائر
الجهات ، ومنعهم المسلمون عما أرادوا ولم يتمكنوا من نصب خيمة إلا
خيمة ملكهم .

وأخذ المسلمون صليبهم الأعظم ، الذي يسمونه صليب
الصلبوت ، ويذكرون أن فيه قطعة من الخشبة التي صلب عليها المسيح
عليه السلام بزعمهم ، فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم ،
وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك .

وقد واجه المسلمون مقاومة عنيفة من الصليبيين ، يقول الأفضل
ابن صلاح الدين الأيوبي : كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف ،
وهو أول مصافٍ شاهدته ، فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك
الجماعة حملوا حملة منكراً على من بإزائهم من المسلمين حتى
ألحقوهم بوالدي ، قال : فنظرت إليه وقد عكته كآبة واربد لونه
وأمسك بلحيته ، وتقدم وهو يصيح : كذب الشيطان ، قال : فعاد
المسلمون على الفرنج فرجعوا فصعدوا إلى التل ، فلما رأيت الفرنج
قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحي : هزمناهم ، فعاد

الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى ألحقوا المسلمين بالوادي، وفعل مثل ما فعل أولا ، وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتل، فصحت أنا أيضا هزمناهم ، فالتفت والدي إلي وقال : اسكت ، مانهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة ، قال : فهو يقول لي إذا الخيمة قد سقطت، فنزل السلطان وسجد شكرا لله تعالى فبكى من فرحه ، وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشا ، وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات مما هم فيه ، فلم يجدوا إلى الخلاص طريقا ، فترلوا عن دوابهم وجلسوا على الأرض فصعد المسلمون إليهم فألقوا خيمة الملك وأسروهم عن بكرة أبيهم ، وفيهم الملك وأخوه والبرنس أرياط صاحب الكرك ولم يكن في الفرنج أشد منه عداوة للمسلمين، وأسروا أيضا صاحب جبيل وابن هنفري ومقدم الداوية ، وكان من أعظم الفرنج شأنا .

وانتهت المعركة بانتصار حاسم للمسلمين وانهزام ساحق للصليبيين، وقد كثر فيها القتلى والأسرى منهم حتى إن من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا واحدا ، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحداً ، وما أصيب الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل سنة إحدى وتسعين وأربعمائة بمثل هذه الواقعة ، وقد بلغ عدد القتلى ثلاثين ألفا وبلغ عدد الأسرى منهم ثلاثين ألفا .

فلما فرغ المسلمون منهم نزل صلاح الدين في خيمته وأحضر ملك الفرنج عنده والبرنس صاحب الكرك ، وأجلس الملك إلى جانبه وقد أهلكه العطش فسقاه ماء مثلوجا فشرب وأعطى فضله البرنس

صاحب الكرك، فشرب ، فقال صلاح الدين : إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فينال أمني ، ثم كلم البرنس وقرّعه بذنوبه وعدّد عليه عوراته ، ومن ذلك أنه سب الرسول ﷺ ، وعزم على غزو مكة والمدينة ، وقتل الحجاج غدرا ، وكان صلاح الدين قد نذر مرتين أن يقتله إن ظفر به ، فقام إليه بنفسه فقتله ، فلما قتله وسحب وأخرج ارتعدت فرائص ملك الصليبيين فسكن السلطان جأشه وأمنه (١).

هذه المعركة العظيمة تعتبر من المعارك الفاصلة في حياة المسلمين ، حيث ترتب عليها فتح القدس وكثير من المدن والحصون التي كان الصليبيون قد استولوا عليها .

وهذا اللقاء الكبير هو الذي كان يخطط له نور الدين محمود حينما بذل جهودا كبيرة في توحيد بلاد الشام ومصر حيث كان لا يستطيع في بلاد الشام وماجاورها أن يجمع نصف هذا الجيش ، فكانت كل حروبه تقليصا لوجود الصليبيين وإضعافا لهم ، ولكن حينما انضمت مصر إلى سلطنته خطط لحرب شاملة يطوّق بها الصليبيين من الشمال والجنوب ، ولكن وافته المنية قبل أن يتم ذلك ، فاستثمر صلاح الدين تلك الجهود الكبيرة وأكمل مابدأه نور الدين ، وكانت على يديه هذه المعركة الكبيرة الفاصلة .

وقد ظهرت لصلاح الدين وجيشه مواقف عالية ، منها أولا : رأيه في مواجهة الأعداء الذي خالف فيه قاداته حيث كان رأيهم تفريق

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ١٧٦/٩ - ١٧٩ .

والبداءة والنهاية لابن كثير ٣٤١/١٢ - ٣٤٣ .

الجيش في سرايا تهاجم حصون الأعداء حتى يتم إضعافهم ، بينما كان رأيهم مواجهة جمع الأعداء بجمع المسلمين ، فكان رأيهم أسدً من آرائهم وأعظم نفعا للمسلمين ونكاية في أعدائهم .

ثانيًا : إغارته على طبرية ليلجئ الأعداء إلى مغادرة مكانهم ومواجهته في المكان الذي أراد أن تكون المعركة فيه ، فكان له ما أراد ، وكان ذلك من عوامل انتصار المسلمين واندحار أعدائهم .

ثالثًا : أن أفراد الجيش الإسلامي ظلوا طوال ليلة المعركة يكبرون الله تعالى ويهللون ، وقد جاء في بعض الأخبار أن صلاح الدين كان يتفقد جيشه تلك الليلة فوجدهم مابين ذاكر ومصلٍّ وتالٍ لكتاب الله تعالى ماعدا أصحاب خيمة واحدة وجددهم نياما ، فقال : إن أتينَا غدا فإِنَّمَا سَنُوتِي من هذه الخيمة فأيقظ أهلها وسرَّحهم إلى دمشق .

وهذا يدل على وعي السلطان صلاح الدين وفهمه الثاقب لعوامل النصر الأساسية ، كما يدل على صلاح أفراد ذلك الجيش الذي تم على يده النصر الحاسم للإسلام والمسلمين .

رابعًا : في تلك المعركة انتصر المسلمون على عدو يبلغ أضعافهم ، حيث جاء في نهاية خبر المعركة أن عدد قتلى الصليبيين ثلاثون ألفا وعدد أسراهم ثلاثون ألفا ، وقد استطاع ثلاثة آلاف منهم الفرار ، وهذا يعني أنهم كانوا ثلاثة وستين ألفا ، بينما كان عدد جيش المسلمين اثني عشر ألفًا سوى المتطوعين الذين لم يُذكر عددهم ، والظاهر أن عددهم قليل لا يلفت النظر إذ لو كانوا كثيرين لكان هناك اهتمام ببيان عددهم ، فالمسلمون إذاً واجهوا أضعافهم ، إضافة إلى

عامل مهم ظاهره أنه لصالح المسلمين وحقيقته أنه لصالح الأعداء ، وهو كون الأعداء قد حيل بينهم وبين الماء ، وليس بينهم وبينه إلا جيش المسلمين ، وهذا عادةً يكون دافعا إلى استماتة المقاتلين وإقدامهم ليخترقوا صفوف أعدائهم حتى يصلوا إلى الماء ، وقد كان ذلك من الصليبيين ، ولكنهم وُوجِّهوا بثبات قوي وبسالة عالية من المسلمين ، حيث استطاعوا صد هجماتهم وإعادتهم إلى الوراء أكثر من مرة .

وقد جرى على المسلمين قديما - بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه - موقف مشابه ، حيث واجهوا أعداءهم وليس معهم ماء وكان الأعداء على الماء ، فشكى المسلمون هذا الأمر لخالد فأفادهم بأن الماء سيصير لأصبر الفريقين ، وصار للمسلمين الذين صبروا وهزموا أعداءهم من الفرس .

خامساً : من المواقف العالية للسلطان صلاح الدين الأيوبي أنه لما حمل الأعداء حملة شديدة على المسلمين وتراجع المسلمون حتى لحقوا به قال : « كذب الشيطان » فهذا دليل على أنه لم يعتمد على الأسباب المادية وإنما كان حاضر القلب مع الله تعالى مدركا أنه هو ولي المؤمنين وأن الشيطان ولي الكافرين ، فهو بهذا الكلام يدحر الشيطان الرجيم الذي يفرح بما ينال المسلمين من هزيمة ، ويشعره بأن ظنونه كاذبة وأن ما حصل للمسلمين إنما هو أمر عارض ، وأن المسلمين سيثبتون وستكون نهاية المعركة لصالحهم .

إن أول ماتبادر إلى ذهنه من هول ذلك المشهد هو دحر الشيطان وتكذيب ظنونه ، وهذا يعني أن فكره مرتبط برجاء نصر الله تعالى

وتأييده ، ليخيب ظن الشيطان وجنوده ، وهذا يكشف لنا عاملا مهما
من عوامل نجاح السلطان صلاح الدين في إقامة دولة كبرى تحكم
بالإسلام وتتحاكم إليه وتنصره وتدافع عنه .
فتح بيت المقدس :

كان فتح بيت المقدس هو الهدف الأعظم من كل الجهاد الذي قام
به السلطان نور الدين محمود ومن بعده السلطان صلاح الدين
الأيوبي .

ولقد كان من براعة صلاح الدين وتخطيطه الحربي العبقري أنه بدأ
بالاستيلاء على المدن الساحلية التي بيد الصليبيين حتى لا تكون
محطات لنزول حملة صليبية جديدة ، ولقد كان الاستيلاء على بيت
المقدس من قبل المسلمين أمراً كبيراً على النصارى في العالم ، فقد كان
هناك احتمال أن يقوم المنكوبون في حطين بطلب النجدة من الممالك
الأوربية ، فبدأ صلاح الدين بأقرب بلد إليه وهي طبرية فاستولى
عليها ، ثم فتح مدينة عكا بعد حصارها والصلح مع أهلها ثم راسل
أخاه العادل نائبه على مصر ليغزو المدن الساحلية القريبة منه ففتح
«مجدل يابا» و « يافا » .

ثم فرق صلاح الدين عسكره مدة إقامته بعكا ، ففتح قاداته
الناصرية وقيسارية وصفورية ومعليا والشقيف والفولة وغيرها من
البلدان المجاورة لمدينة عكا .

ثم تولى صلاح الدين فتح مدينة بيروت وصيدا وتبنين وجبيل ،
وبقي من المدن الساحلية الشمالية مدينة صور التي تجمع بها أكثر من

خرجوا من بلادهم من النصارى وولّوا أمرهم « المريكش » أحد التجار القادمين عليها ، فكان أمرها يحتاج إلى مرابطة طويلة فتركها صلاح الدين حتى لا تشغله عن فتح بيت المقدس .

وقد رجع السلطان جنوبا إلى القدس ولكنه قدّم عليها عسقلان فحاصرها بعد أن التقى بأخيه العادل نائبه على مصر ومعه جيش من مصر ، ففتحها صلحا بعد حصار دام أربعة عشر يوما ، ثم بث سرايا ففتح غزة والرملة والداروم وغيرها (١) .

ولما تم فتح ماحول القدس وتم تأمين الساحل توجه السلطان صلاح الدين بجيشه نحو بيت المقدس وكان بها جمع كثيف من النصارى إلى جانب من لجأ إليها من موقعة حطين ومن عسقلان وغير ذلك ، وكانوا جميعا يرون الموت أهون من أن يملك المسلمون بيت المقدس وحصّنوا سوره ونصبوا عليه المجانيق ليمنعوا من يريد الدنو منه ، وصعدوا على سوره بحدّهم وحديدتهم وقد عزموا على حفظه والذب عنه .

وقد وصل جيش المسلمين إلى القدس في منتصف رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، فرأى المسلمون على سوره من الرجال ما هالهم ، وسمعوا لأهله من الغلبة والضجيج داخل المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع .

وبقي صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتل لأن السور في غاية التحصين ، فلم يجد عليه موضع قتال إلا

(١) الكامل في التاريخ ١٧٩/٩ - ١٨٢ .

من جهة الشمال ، فانتقل إلى هذه الجهة ونصب المنجنيقات ، وبدأ القتال بالرمي من الطرفين، وتقاتلوا أشد قتال رآه الناس ، كل واحد من الفريقين يرى ذلك دينا حتما واجبا فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني .

وكان خيالة الأعداء يخرجون كل يوم إلى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون ، فيُقتل من الفريقين ، وممن استشهد الأمير عز الدين عيسى ابن مالك ، وهو من أكابر الأمراء وكان أبوه صاحب قلعة جعبر، وكان يقاتل بنفسه كل يوم ، فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك فحملوا حملة رجل واحد فأزالوا الفرنج عن مواقعهم فأدخلوهم إلى القدس .

ووصل المسلمون إلى الخندق فجاوزوه والتصقوا بالسور فنقبوه، وزحف الرماة يحمونهم ، والمنجنيقات توالي الرمي لتكشف الفرنج عن الأسوار ، حتى يتمكن المسلمون من نقب السور، فلما نقبوه حشوه بالمواد وفجروه فسقط السور والبرج الذي عليه .

فلما رأى ذلك الفرنج اجتمع مُقَدَّمُوهم فتشاوروا واجتمع رأيهم على طلب الأمان وتسليم القدس لصالح الدين ، فأرسلوا جماعة من أعيانهم في طلب الأمان فامتنع السلطان من إجابتهم وقال: لا أفعل بكم إلا ما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي ، وجزاء سيئة بمثلها .

فلما رجعت رسلهم خائبين لم يظفروا بالصلح أرسل كبيرهم ياليان بن بيرزان وطلب الأمان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين في أمر

الصلح فأجيب إلى ذلك وحضر عنده ورغب في الأمان فلم يجبه واستعطفه فلم يعطف عليه ، فلما أيس من ذلك قال له : أيها السلطان اعلم أننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمه إلا الله تعالى ، وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ظنا منهم أنك تجيبهم إليه كما أجبت غيرهم ، وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة ، فإذا رأينا الموت لا بد منه فو الله لنقتل أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تغنمون منها ديناراً واحداً ولا درهماً ، ولا تسبون ولا تأسرون رجلاً ولا امرأة ، وإذا فرغنا من ذلك خربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع ، ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ، ولا نترك دابة ولا حيواناً إلا قتلناه ، ثم خرجنا إليكم كلنا فقاتلناكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه ، وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله ، ونموت أعزاء أو نظفر كراما .

فاستشار صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان ، فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بذل الأمان للفرنجة ، فاستقر أن يؤخذ من الرجل عشرة دنانير يستوى فيه الغني والفقير ويؤخذ من المرأة خمسة دنانير ومن الطفل ذكراً أو أنثى ديناران ، فمن أدى ذلك إلى أربعين يوماً فقد نجا ، ومن انقضت الأربعون يوماً عنه ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكا .

فبذل ياليان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار ، فأجيب إلى ذلك وسلّمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ، وكان يوماً مشهوداً ورفعت الأعلام الإسلامية على أسوارها .

ودخل صلاح الدين المسجد الأقصى فأمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقدار والأنجاس ، ففعل ذلك ، وأمر أن يُعمل له منبر فقيل له : إن نور الدين محموداً كان قد عمل بحلب منبراً أمر الصُّنَّاع بالمبالغة في تحسينه وإتقانه ، وقال : هذا عَمَلُنَا لِنُنْصِبَ بالبيت المقدس ، فعمله النجارون في عدة سنين ، ولم يُعمل في الإسلام مثله ، فأمر بإحضاره فحُمِلَ من حلب ونُصِبَ بالقدس ، وهذا من حسنات نور الدين وبعْدَ همته وطموحه رحمه الله تعالى (١) .

وهكذا فُتِحَ بيت المقدس للمرة الثانية في الإسلام وقد حاز شرف المرة الأولى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وحاز شرف الثانية السلطان صلاح الدين الأيوبي وهو شرف كبير أن يُقرن الثاني بالأول .

ومن المواقف الجليلة في هذا الحصار إقدام أبطال المسلمين على الزحف إلى سور المدينة وتجاوزهم الخندق الذي وضعه الأعداء لحمايتهم ، ثم قيامهم بنقب السور مع كثرة الرماة الذين هم فوق السور ، وبإقدام هؤلاء الأبطال تم فتح بيت المقدس وانتصار المسلمين .

وبعد هذه الرحلة الجهادية التي تم فيها الانتصار الحاسم على الصليبيين في حطين وفتح بيت المقدس وعدد من المدن والقلاع . . بعد ذلك عاد صلاح الدين إلى دمشق ليستريح جيشه ثم يواصل الجهاد بعد ذلك ، وكتب إلى البلاد جميعاً باجتماع العساكر بدمشق .

ولما عاد إلى دمشق وجد وكيل الخزانة الصفيّ بن الفايض قد بنى

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٨٢ - ١٨٥ ، البداية والنهاية ١٢/ ٣٤٤ - ٣٤٧ .

له داراً بالقلعة هائلة مطلة على الشرف القبلي، فغضب عليه وعزله وقال: إنا لم نُخلَق للمقام بدمشق ولا بغيرها من البلاد، وإنما خلقنا لعبادة الله عز وجل والجهاد في سبيله، وهذا الذي عملته مما يثبط النفوس ويُقعدُها عما خلقت له (١).

وهكذا نرى السلطان صلاح الدين يسمو عن متطلبات النفوس القربية، إلى متطلبات النفوس الطموحة العالية.

إنه لا يهدأ له بال ولا يقر له قرار وهو يرى بقايا الصليبيين مازالوا في بلاد الإسلام.

فكيف يسعد بالإقامة في القصر المنيف والجنان الوارفة وعُبد الصليب يتتهكون بلاد الإسلام ويُدُلُّون المسلمين ؟

إن الإقامة في القصور والنعيم تعتبر بالنسبة لهذا البطل الطموح سجنًا للقلب الحي، وإعاقة للفكر الوثاب.

إنه لا يسعد بسماع لحن مُطرب ولا كلام مُعجب، ولا ثناء منمَّق، ولا تستجيشه رؤية القصور المنيفة وما تحتوي عليه من شهوات ونعيم، وإنما يسعد بسماع صهيل الخيل، وقعقة السلاح، ومقارعة الأقران، والنصر المؤرز على الأعداء.

فلذلك غضب على وكيل الخزانة الذي قصرت همته، وتَدَأَى طموحه إلى بناء قصر يستقبل به السلطان.

أو ليس خالد بن الوليد رضي الله عنه يقول: مائلة تُهدى إليَّ

(١) البداية والنهاية ١٢/ ٣٥١.

فيها عروس أنالها محبٌ بأحب إلي من ليلة شديدة البرد كثيرة الجليد
أصبح فيها العدو بصريةً من المهاجرين !

إنه وأمثاله سلف صالح عظيم لخلف مبدع طموح من أمثال هذا
السلطان الكبير .

فتح قلعة برزية :

قام صلاح الدين برحلة جهادية نحو الساحل الشمالي للشام
وذلك في عام أربعة وثمانين وخمسمائة حيث فتح بعض المدن والقلاع
الحربية . فمن هذه القلاع قلعة « برزية » وكان أهلها يقطعون الطريق
على المسلمين ويبالغون في أذاهم ، فوصلها في الرابع والعشرين من
جمادى الآخرة ، ونزل غربيها ، وهي الجهة التي يمكن قتالها منها ،
وليس معه إلا قلة من جيشه لضيق مسالكها ، ونصب المسلمون
المنجنيقات ، ونصب أهل القلعة منجنيقا أبطل منجنيقات المسلمين لعلو
مكانه ، فلما رأى صلاح الدين أن المنجنيق لا ينتفعون به عزم على
الزحف ومكاثرة أهلها بجموعه ، فقسم عسكره ثلاثة أقسام ، يزحف
قسم فإذا تعبوا عادوا ، وزحف القسم الثاني ، ثم الثالث ، ثم يدور
الدور مرة أخرى حتى يتعب الفرنج حيث إنهم لم يكن عندهم من
الكثرة ما ينقسمون كذلك فإذا تعبوا سلموا القلعة .

فتقدم القسم الأول وزحفوا إلى الأعداء ، وخرج الفرنج من
حصنهم فدافعوا وكان يساعدهم ارتفاعهم فكانوا إلى جانب السلاح
يدخرجون الحجارة الكبيرة على المسلمين ، فلما تعبوا نزلوا وخلفهم
القسم الثاني وكان الزمان حراً فاشتد الكرب على الناس ، وكان صلاح

الدين في سلاحه يطوف عليهم ويحرضهم وكان تقي الدين أخوه كذلك ، وكانت تلك نوبة القسم الخاص بصلاح الدين ، فقاتلوهم إلى الظهر ، ثم تعبوا ورجعوا فلما رآهم صلاح الدين قد عادوا تقدم إليهم وردهم وصاح بالقسم الثالث وهم جلوس ينتظرون نوبتهم فوثبوا ملبين وساعدوا إخوانهم وزحفوا معهم ، وجاء الفرنج مالا قبل لهم به ، وكان أصحاب القسم الأول قد استراحوا فقاموا أيضاً معهم ، فحينئذ اشتد الأمر على الفرنج وبلغت القلوب الحناجر ، فظهر عجزهم عن القتال وضعفهم عن حمل السلاح فخالطهم المسلمون فدخل الفرنج حصنهم فدخل معهم المسلمون .

وكان طائفة قليلة من المسلمين في الخيام شرقي الحصن فرأوا الفرنج قد أهملوا ذلك الجانب لأنهم لا يروا فيه مقاتلاً . وليكثروا في الجهة التي فيها صلاح الدين ، فصعدت تلك الطائفة من العسكر ، فلم يمنعه مانع ، فصعدوا أيضاً الحصن من الجهة الأخرى فالتقوا مع المسلمين الداخلين مع الفرنج ، فملكوا الحصن عنوة ودخل الفرنج «القلعة»^(١) التي للقلعة وأحاط بهم المسلمون ، وأرادوا نحبها ، وكان الفرنج قد رفعوا من عندهم من أسرى المسلمين إلى سطح القلعة وأرجلهم في القيود والخشب المثقوب ، فلما سمعوا تكبير المسلمين في نواحي القلعة كبروا في سطح القلعة ، وظن الفرنج أن المسلمين قد صعدوا إلى السطح فاستسلموا وألقوا بأيديهم إلى الأسر فملكها المسلمون عنوة ، وأخذوا مافيها وسبوا من فيها وأخذوا صاحبها وأهله .

ذكر ذلك المؤرخ ابن الأثير وكان قد حضر ذلك الحصار ثم قال :

(١) يعني أعلى القلعة وهو مكان محصن .

ومن أعجب ما يُحكى من السلامة أنني رأيت رجلا من المسلمين على هذا قد جاء من طائفة من المؤمنين شمالي القلعة إلى طائفة أخرى من المسلمين جنوبي القلعة ، وهو يعدو في الجبل عرضا ، فألقيت عليه الحجارة وجاءه حجر كبير لو ناله لبعجه ، فنزل عليه فناداه الناس يحذرونه ، فالتفت ينظر ما الخبر فسقط على وجهه من عشرة ، فاسترجع الناس وجاء الحجر إليه فلما قاربه وهو منبطح على وجهه لقيه حجر آخر ثابت في الأرض فوق الرجل فضر به المنحدر فارتفع عن الأرض ومَرَّ من فوق الرجل ثم سقط على الأرض من جانبه الآخر لم ينله منه أذى ولا ضرر ، وقام يعدو حتى لحق بأصحابه ، فكان سبب نجاته ، فتعسّت أم الجبان ! (١) .

فهذا الخبر فيه مواقف وعبر فمنها :

أولا : أن هؤلاء الصليبيين الذين انخدعوا بحصنهم الحصين فصاروا يقطعون الطريق وينهبون أموال الناس لم يمهكوا بل سلط الله تعالى عليهم هذا السلطان القوي فأخذهم شر أخذة وأصبحوا أذلة مملوكين بعد أن كانوا يملكون أموال الناس بالقوة ، فلا ينخدعن مبطل مفسد فإن هناك أيدٍ قوية عادلة قد أعدت له إلى جانب عذابه في الآخرة .

ثانياً : فيه مثل من حزم السلطان صلاح الدين وابتكار الطرق الحربية غير المألوفة إذا تعذر استعمال المألوفة ، فحينما بطل استعمال المنجنيق عوض ذلك باستثماره كثرة جيشه فجعلهم أقساماً يتناوبون ،

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٩٣ - ١٩٤ .

وحول الوقت كله إلى قتال حتى استنفد كل طاقة الأعداء فسلموا أنفسهم ، وهكذا يفعل القائد المبدع حيث يضع الأمور مواضعها ويجعل لكل حال لبوسها .

ثالثًا : مثلٌ من إقدام المجاهدين على المغامرة وإن كان هناك من يكفيهم ولم تصدر لهم أوامر ، وقد تمثل ذلك في مشهدين : الأول حينما قام أصحاب القسم الأول الذين انتهت نوبتهم فقاتلوا مع إخوانهم ، والثاني : حينما قام الذين خلفوا في الخيام فتسوروا الحصن من جانب آخر وساعدوا إخوانهم في القتال ، وهذا دليل على إخلاصهم وسمو مقاصدهم .

رابعًا : بركة التكبير ورفع الصوت به ، فلقد كان سببا في فتح الملجأ الذي كان داخل القلعة حينما كبر أسرى المسلمين الذين كانوا فوقه فتوجه الأعداء أن المسلمين صعدوا إلى سطحه ، والتكبير دائما له أثر مُزَلْزَل في الأعداء ، فطالما انخلعت له قلوبهم وتحطمت بسماعه معنوياتهم .

خامسًا : عبرة بليغة في نجاة ذلك المسلم الذي دحرج عليه الأعداء صخرة حيث هيا الله له أن يسقط على الأرض وأن تقفز الصخرة من فوقه دون أن تمسه بأذى ، والله سبحانه إذا أراد سلامة عبده هيا أسباب ذلك ، وفي هذا درس للجبناء الذين يقعدون في مأمنهم خوفا من المهالك ويضيعون بسبب ذلك طاقات كثيرة تبقى معطلة لا يستفيدون منها هم ولا إخوانهم المسلمون .

فتح حصن الشجر :

بعد أن استولى صلاح الدين على حصن برزية توجه إلى حصن الشجر ، وكان لا يصل إليه حجر المنجنيق من ارتفاعه ووعورة مسالكه ،
فبينما صلاح الدين جالس وعنده أصحابه وهم في ذكر القلعة وإعمال
الحيلة في الوصول إليها قال بعضهم : هذا الحصن كما قال الله تعالى
﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ [الكهف : ٩٧] ،
فقال صلاح الدين : أو يأتي الله بنصر من عنده ، فبينما هم في هذا
الحديث إذ قد أشرف عليهم فرنجي ونادى بطلب الأمان لرسول يحضر
عند صلاح الدين ، فأجيب إلى ذلك ، ونزل رسول وسأل إنظارهم
ثلاثة أيام فإن جاءهم من يمنعهم وإلا سلّموا القلعة بما فيها من ذخائر
ودواب وغير ذلك ، فأجابهم إليه وأخذ رهائنهم على الوفاء به ، فلما
كان اليوم الثالث سلموها إليه ، واتفق أنه يوم الجمعة سادس عشر من
جمادى الآخرة - يعني من سنة أربع وثمانين وخمسمائة - وكان سبب
استمھالهم أنهم أرسلوا إلى صاحب أنطاكية وكان هذا الحصن له
يُعرفونه أنهم محصورون ويطلبون منه أن يُرحّل عنهم المسلمين ، فإن
فعل وإلا سلّموه ، وإنما فعلوا ذلك لرعب قذفه الله تعالى في قلوبهم
وإلا فلو أقاموا الدهر الطويل لم يصل إليه أحد ولا بلغ المسلمون منه
غرضاً (١) .

وفي هذا الخبر مثل من نصر الله تعالى أوليائه بالرعب الذي

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٩٢ .

يقذفه في قلوب أعدائهم ، فيسلكون معهم على خلاف السلوك المعتاد مع غيرهم .

كما أن فيه إشارة إلى قوة تعلق قلب صلاح الدين بالله عز وجل وثقته البالغة بنصره ، فمع تعذر السبل الموصلة إلى تلك القلعة قال :
أو يأتي الله بنصر من عنده ، فكان النصر هو ذلك الرعب الذي ألحاه الله تعالى في قلوب الأعداء فخرجوا للتفاوض وتسليم الحصن دون أن يمسه أي أذى من الحرب .

حصار مدينة صور :

استطاع صلاح الدين تطهير بلاد الشام من أكثر معاقل الصليبيين ، ولكن شذاذهم ومن آمنهم صلاح الدين تجمعوا في مدينة صور الساحلية ، وقد قصدها صلاح الدين ولكن استعصى عليه فتحها لخصائنها الطبيعية حيث أنها أشبه بجزيرة ومدخلها من البر محاط بالبحر ، فكان المسلمون يقاتلونهم من جهة واحدة والأعداء يقاتلونهم براً من جهة وبحراً من جهتين حيث كانت سفنهم ترمي جيش المسلمين ، وقد أدرك صلاح الدين عدم إمكانية فتحها إلا باحضرار سفن تمنع خروج سفنهم من الميناء فأحضر عشر سفن ، وقد قامت بالمهمة وحصرت سفن الأعداء إلا أنهم باغتوا سفن المسلمين فاستولوا على خمس منها ، فلم تعد الخمس الباقية كافية فأرسلها صلاح الدين إلى بيروت ، ورحل صلاح الدين عن صور لعدم إمكانية قتالهم بغير سفن (١) .

(١) الكامل في التاريخ ١٨٦/٩ - ١٨٧ .

استجداد صليبي الشام بأهل أورباً :

وقد رحل زعماء النصارى الدينيون من صور إلى بلاد أوربا ، وقاموا بدعوة مكثفة لغزو المسلمين واسترجاع بيت المقدس ، وصاروا يستنجدون بأهل أوربا ويحثونهم على الأخذ بثأر البيت المقدس ، وصوروا المسيح عليه السلام ، وجعلوا صورة رجل عربي والعربي يضربه ، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح عليه السلام ، وقالوا لهم : هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين [صلى الله عليه وسلم وحاشاه مما يقول الظالمون] وقد جرحه وقتله ، فعظم ذلك على الفرنج فحشدوا رجالهم ونساءهم ، ومن لم يستطع الخروج يستأجر من يخرج عوضه أو يعطيهم مالاً على قدر حالهم ، فاجتمع لهم من الرجال والأموال ما لا يتطرق إليه الإحصاء .

وقد كان من أثر هذه الحملة الدعائية الكبرى قيام الحملة الصليبية الثالثة ، حيث استجاب لها ملوك أوربا ، فجندوا عشرات الألوف من الصليبيين عن طريق البحر ، وخرج ملك ألمانيا ومعه مائة ألف عن طريق البر .

وقد كان خروج ملك الألمان في سنة ست وثمانين وخمسمائة من بلاده ، وهم نوع من الفرنج من أكثرهم عدداً وأشدهم بأساً ، وقد أزعجه ملك المسلمين البيت المقدس فجمع عساكره وسار عن طريق القسطنطينية ، وقد كتب ملك الروم إلى صلاح الدين يُعرِّفه بذلك ويَعِدُّه بمنعه من العبور ، ولكنه عجز عن ذلك إلا أنه منع عنهم الميرة . وساروا حتى مروا على أرض الإسلام ، وذلك في مملكة قلعج

أرسلان السلجوقي ، فثار بهم التركمان فمازالوا يسايرونهم ويقتلون من انفراد ، وعصف بهم البرد وكان الثلج متراكما فأهلكهم البرد والجوع والتركمان قتل عددهم ، ومع ذلك خافهم الملك السلجوقي فهادبنهم وسمح لهم بالتزود من بلاده بما يشاؤون . ثم مروا ببلاد الأرمن فأظهر لهم صاحبها الطاعة وأمدهم بما شاؤوا ، ثم ساروا نحو أنطاكية .

وكان في طريقهم نهر فنزلوا عنده ودخل ملكهم ليغتسل وكان النهر شديد الجري فحملة الماء إلى شجرة فشجّت وجهه وأخمدت أنفاسه وكفى الله شره ، وقد اختلف أصحابه على ولده فرجع عنه طائفة إلى بلادهم ، وسار فيمن بقي وهم يزيدون على أربعين ألفا ، ووقع فيهم الوباء والموت فوصلوا إلى أنطاكية فحسن لهم صاحبها المسير إلى عكا ، فساروا على ساحل بلاد الشام فخرج لهم أهل حلب وغيرها وأخذوا منهم خلقا كثيرا ومات أكثر من أخذ .

وبلغوا طرابلس فكثرت فيهم الموت فلم يبق منهم إلا نحو ألف رجل ، فركبوا إلى عكا ، ولما رأوا ما فيه أهلها من الاختلاف عادوا إلى بلادهم ففرقت بهم المراكب ولم ينج منهم أحد (١) .

وهكذا أنقذ الله تعالى المسلمين من مائة ألف مقاتل ، وذلك بعدة عوامل ، منها غارة بعض المسلمين عليهم ، ومنها موت ملكهم وتفرقهم من بعده ، وهذا أهمها ، ومنها إصابتهم بالوباء وموت كثير منهم ، ولو أنهم سلموا ووصلوا لكانت محنة كبرى على المسلمين ،

(١) الكامل في التاريخ ٢٠١/٩ ، ٢٠٧ ، البداية والنهاية ٣٥٨/١٢ .

وفي ذلك يقول ابن الأثير : ولولا لطف الله بالمسلمين ، وأهلكَ ملك الألمان وإلا كان يقال : إن الشام ومصر كانتا للمسلمين (١) .

وصول الصليبين إلى عكا :

تقدم لنا أن الصليبين خرجوا بأعداد كبيرة من أوروبا قاصدين بلاد الشام ، وقد وصلوا إلى ميناء صور فضاقت بهم فقصدوا عكا ، وساروا إليها مع من اجتمع بها من صليبي الشام عن طريق البر ، وسفنهم تحاذيهم في البحر ، وكان رأي صلاح الدين اقتطاعهم وهم سائرون في البر ، ولكن لم يوافق على ذلك قاداته وطلبوا الأسهل لهم ، وكان قد جعل جزءاً من الجيش يناوشونهم ، ومع قلتهم فإن الأعداء هابوا قتالهم ، فكيف لو كان كل الجيش الإسلامي يناوشهم؟! ووصلوا إلى عكا قبل المسلمين فأحاطوا بها من البحر إلى البحر ، ولم يتمكن المسلمون من الوصول إليها ، وجرت بينهم وقائع كثيرة ، أبرزها معركة في أول شهر شعبان باكرهم فيها صلاح الدين بحده وحديده واستدار عليهم من سائر جهاتهم ، واستمر القتال إلى الظهر ، وصبر الفريقان صبراً حاراً له من رآه ، فلما كان وقت الظهر حمل عليهم تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين حملة قوية من الميمنة على من يليه منهم فأزاحهم عن مواقعهم ، وركب بعضهم بعضاً والتجؤوا إلى من يليهم من أصحابهم وأخلوا نصف البلد ، وملك تقي الدين مكانهم ، وصار المسلمون يدخلون البلد وأدخل فيه صلاح الدين الرجال والمؤن (٢) .

(١) الكامل في التاريخ ٢٠١/٩ .

(٢) الكامل في التاريخ ٢٠١/٩ - ٢٠٢ .

في هذه المعركة موقف يذكر لابن أخى صلاح الدين تقي الدين
ومن ثبتوا وأثخنوا في العدو من أبطال المسلمين .

هذا وقد جرت معركة كبرى بينهم ، وذلك أن الصليبيين رأوا قلة
جيش المسلمين حيث إن بعض جيش صلاح الدين مرابط حول
الثغور، وجيش مصر لم يصل ، فانتهاز الصليبيون الفرصة قبل أن
تأتي أمداد المسلمين ، فخرجوا من معسكرهم كأنهم الجراد المنتشر قد
ملؤوا الأرض طولاً وعرضاً ، وهجموا على ميمنة المسلمين وفيها تقي
الدين عمر ابن أخي صلاح الدين ، فأمدهم صلاح الدين برجال من
القلب، فلما رأى الصليبيون قلة من في القلب عطفوا عليه عطفة
رجل واحد فتقهقر كثير من المسلمين وانهزموا وثبت بعضهم واستشهد
بعض أمرائهم وشجعانهم فقصد الأعداء التل الذي فيه خيمة صلاح
الدين ، فقتلوا من مروا به ، وانحدروا إلى جانب التل الآخر ، ثم
خشوا أن يُقتطعوا فرجعوا، وكان صلاح الدين يحث المسلمين على
الثبات ويناديهم ويأمرهم بالكرّة فاجتمع حوله جماعة صالحة فتقدم
بهم ، وكانت ميمنة المسلمين قد ثبتوا وحملت مسيرة المسلمين على
من يليهم فقطعوا المدد عن الذين حملوا على القلب ، فلما رجع
هؤلاء كانت لهم مسيرة المسلمين، وحمل عليهم صلاح الدين بمن معه
من خلفهم فلم يفلت منهم أحد ، وكان النصر للمسلمين على قتلهم
بالنسبة للأعداء (١) .

فهذه المعركة فيها مثل من ثبات صلاح الدين ورباطة جأشه

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ٢٠٢ - ٢٠٣ .

وحسب تصرفه عند الشدائد، وفيها مواقف كريمة للمسلمين الذين ثبتوا معه في عدم التأثر بموقف من انهزموا، وبقاء معنويتهم عالية مع ما حرزته الأعداء في البداية من إجلاء أصحاب القلب عن مواقفهم .

معركة الأسطول :

كان السلطان صلاح الدين قد أرسل إلى البلاد الإسلامية بطلب الإمداد العسكري فوصلت إليه الجيوش من بعض البلاد، ومنها أسطول خرج من مصر ، وقد وصل الأسطول قرب مدينة عكا، فلما سمع الفرنج بقربه جهزوا إلى طريقه أسطولاً ليلقاه ويقاتله، فركب صلاح الدين في العساكر جميعها وقاتلهم من جميع جهاتهم ليستغلوا بقتاله عن قتال الأسطول ليتمكن من دخول عكا ، فلم يشتغلوا عن قصده بشيء فكان القتال برا وبحرا ، وكان يوما مشهوداً لم يؤرخ مثله، وأخذ المسلمون من الفرنج مركبا فيه من الرجال والسلاح، وأخذ الفرنج من المسلمين مثل ذلك إلا أن القتل في الفرنج كان أكثر منه في المسلمين ، ووصل الأسطول الإسلامي سالماً (١) .

وهذا يعتبر نجاحاً كبيراً لأولئك المجاهدين حيث سيطروا على الميناء ودافعوا عن الأسطول الإسلامي بالرغم من وجود الصليبيين القوي في البحر .

وقبل ذلك كان السلطان قد أمر بتجهيز سفينة كبيرة من بيروت فيها طعام كثير وأسلحة، فقام من فيها من التجار المسلمين بالتزوي بزيّ الفرنج خدعة لهم وكانت السفينة مما غنمه المسلمون منهم،

(١) الكامل في التاريخ ٢٠٦/٩ .

فوصلت ولم يشكَّ الأعداء أنها لتجارهم وأفرغت حمولتها فاكتفى بها المسلمون حتى قدم الأبطال المصري (١) .

وكان النصر حليف المسلمين في كل المعارك التي خاضوها مع الصليبيين حول عكا، وإن حصل لبعضهم انهزام في أول المعركة، إلا أن معاركهم معهم لم تكن حاسمة نظراً لكثرة الصليبيين ، ولكونهم سبقوا إلى سور عكا وعملوا لأنفسهم تحصينات يلجؤون إليها عند الانهزام ، ولما كان يعتري صلاح الدين من المرض الذي يحمله على مغادرة الميدان مدة قد تطول فيستفيد الأعداء من ذلك ، ولكون بعض قادة صلاح الدين لا يأخذون برأيه أحيانا فتفتوت على المسلمين فرص جيدة للنصر الحاسم ، ولأن الإمدادات من أمراء المسلمين تعتبر قليلة جدا بالنسبة لما يصل إلى الصليبيين من إمدادات (٢) .

وقبل ذلك وأهمُّ منه أن من أسباب تأخر النصر وقوع المسلمين أو بعضهم في المعاصي ، وقد نبه القاضي الفاضل السلطان بعدة كتب لهذا المعنى ، ومما جاء فيها : إن ما عند الله تعالى من النصر لا يُنال إلا بطاعته ، وإننا لو صدَّقناه لعجلَّ لنا عواقب صدقنا ، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا ، ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به ، ونستغفر الله تعالى من ذنوبنا ، فلو لا أنها تسدُّ طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل ، وفيض دموع الخاشعين قد غَسَلَ ، ولكن في الطريق عائق (٣) .

(١) البداية والنهاية ١٢ / ٣٦٠ .

(٢) ينظر الكامل في التاريخ ٩ / ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٣) البداية والنهاية ١٢ / ٣٦١ ، والقاضي الفاضل من العلماء الكبار وكان وزير صلاح الدين ومستشاره ، وكان يحبه كثيراً ويأخذ بآرائه .

ابتكار علمي حربي موفق :

كان الصليبيون في مدة مقامهم على عكا قد عملوا ثلاثة أبراج من الخشب عالية جداً ، طول كل برج منها خمس طبقات ، كل طبقة مملوءة من المقاتلة ، وقد غشوها بالجلود والخل والطين والأدوية التي تمنع النار من إحراقها وقدموها نحو مدينة عكا من ثلاث جهات ، وزحفوا بها فأشرفت على السور ، وقاتل من بها من عليه فانكشفوا وشرعوا في طم خندقها ، فكادوا أن يملكوا البلد عنوة ، فقاتل صلاح الدين الصليبيين ثمانية أيام وخفف ذلك عن حامية البلد ، وقد قاوم المسلمون الأبراج بالنفط الطيار فلم يصنع فيها شيئاً فأيقنوا بالهلاك .

ولما أراد الله تعالى إنقاذ المسلمين من تلك الأبراج وفق شاباً نحاساً من أهل دمشق يُعرف بعلي بن عريف النحاسين وكان مولعاً بآلات النفط وتحصيل العقاقير التي تقوي عمل النار ، وكان بعكا لأمر يريده الله ، فلما رأى الأبراج قد نُصبت على عكا شرع في عمل مايعرفه من الأدوية المقوية للنار ، بحيث لا يمنعها شيء من الطين والخل وغيرها ، فلما فرغ منها حضر عند الأمير قراقوش حاكم عكا ، وقال له يأمر المنجنيقي أن يرمي في المنجنيق المحاذي لبرج من هذه الأبراج ما أعطيه حتى أحرقه ، وكان عند قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ومن فيه ما يكاد يقتله فازداد غيظاً بقوله فقال له : قد بالغ أهل هذه الصناعة في الرمي بالنفط وغيره فلم يفلحوا ، فقال له من حضر : لعل الله تعالى يجعل الفرج على يد هذا ولا يضرنا أن نوافقه على قوله فأجابه إلى ذلك ، وأمر المنجنيقي بامتنال أمره ، فرمى

عدة قدور نفطا وأدوية ليس فيها نار ، وكان الفرنج إذا رأوا القدر لا يحرق شيئاً يصيحون ويرقصون ويلعبون على سطح البرج ، حتى علم أن الذي ألقاه قد تمكن من البرج فألقى قدراً مملوءة وجعل فيها النار فاشتعل البرج ، وألقى قدراً ثانية وثالثة فاضطربت النار في نواحي البرج ، وأعجلت من في طبقاته الخمس عن الهرب فاحترق هو ومن فيه ، فلما احترق البرج الأول انتقل إلى الثاني والثالث وقد هرب من فيهما ، وكان يوما مشهوداً لم ير الناس مثله ، والمسلمون ينظرون فرحين لنجاة المسلمين من الأبراج .

وحُمِلَ ذلك الرجل إلى صلاح الدين فبذل له الأموال الجزيلة والاقطاع الكثيرة فلم يقبل منه شيئاً ، وقال : إنما عملته لله تعالى ولا أريد الجزاء إلا منه (١) .

وبعد : فإن ما قام به هذا الرجل المبدع الماهر في الصناعة يعتبر أمراً عظيماً وإنجازاً كبيراً نصر الله تعالى به الإسلام وأقرَّ عيون المسلمين وأذل به الكفار وأبطل مساعيهم .

وهكذا يمرر من عباقرة المسلمين من يتفوقون آنذاك على الأوروبيين الذين مهروا في الصناعة ، وهذا دليل على ارتفاع مستوى المسلمين في الصناعات الحربية ، لأن هذا الرجل لم يكن ليبلغ ما بلغ لولا تقدم المسلمين في الصناعة وتوفر الآلات والمواد اللازمة لذلك ، وقد كانوا في تلك المواد المحرقة قد وصلوا إلى مستوى الأوروبيين ،

(١) الكامل في التاريخ ٢٠٥/٩ - ٢٠٦ .

البداية والنهاية ٣٥٧/١٢ .

ثم تفوق الصليبيون باختراع الموانع التي تمنع عمل النار ، فتوصل هذا المسلم المبدع إلى اختراع مواد تقوي النار بحيث تبطل مفعول تلك الموانع التي اخترعها الأعداء .

وهكذا تفوق المسلمون آنذاك على أعدائهم في الاختراع والصناعة فأعقب ذلك نصراً مؤزراً للمسلمين وهزيمة نكراء لأعدائهم .

استيلاء الصليبيين على عكا وعقد هدنة معهم :

هذا وقد جرت معارك أخرى كان النصر فيها حليف المسلمين إلا أنها لم تكن حاسمة ، إلى أن وصل ملك فرنسا ثم ملك المجلترا على رأس جيشين في عدد من السفن فاستطاع الصليبيون أن يستولوا على عكا ، وكان من أسباب ذلك أيضاً ما حصل من سامة أفراد الحامية الإسلامية داخل عكا وإبدالهم بجنود آخرين ليسوا في مستواهم في الخبرة والعدد .

وكان الذي أطل بقاء الصليبيين حول عكا هو اعتصامهم بخنادقهم ، فكانوا قلماً يخرجون للقتال ، وإذا خرجوا وانهزموا لجؤوا إليها .

وكانوا إذا خرجوا يقصدون طائفة من المسلمين ليقتلوا عليهم ، فمن ذلك أنهم في العشرين من جمادى الآخرة من سنة ست وثمانين وخمسمائة خرجوا واتجهوا نحو جيش المصريين ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ودخل الصليبيون خيامهم فقاتلهم المصريون فيها ثم داروا على الصليبيين من الخلف وقطعوا إمدادهم ، وساعدهم أهل الموصل لقربهم منهم فقتلوا من الصليبيين ما يزيد على عشرة آلاف .

ولما تتابعت الأمداد على الصليبيين خرجوا مرة أخرى من خنادقهم ، فتصدت لهم مقدمة المسلمين بالرماية ، وندم الصليبيون على خروجهم فلزموا مكانهم ، وباتوا ليلتهم تلك فلما كان الغد عادوا نحو عكا والمسلمون خلفهم يقتلون منهم ، وكان صلاح الدين مريضا وقد نُصب له خيمة فوق تلّ ، فلم يكن له إشراف مباشر ، يقول ابن الأثير : فلولا ذلك الألم الذي حدث بصلاح الدين لكانت هي الفصل وإنما لله أمر هو بالغه (١) .

وقد انتهى أمر صلاح الدين مع الصليبيين إلى عقد هدنة لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر وذلك في العشرين من شعبان عام ثمان وثمانين وخمسمائة ، وقد كانت الهدنة بطلب من ملك إنجلترا ، وقد أشار أمراء صلاح الدين عليه بالموافقة ليرحل الفرنج القادمون فتخف الوطأة على المسلمين (٢) .

مثل من رحمة صلاح الدين :

وقد كان صلاح الدين رحمه الله رقيق القلب رحيمًا بالمسلمين عطوفا عليهم ، ولقد بلغت رحمته أعداءه ، ومن ذلك أن امرأة من الفرنج سُرِق ولدها الرضيع وهو ابن ثلاثة أشهر ، فوجدت عليه أمه وجدا شديدا واشتكت إلى ملوكهم فقالوا لها : إن سلطان المسلمين رحيم القلب ، وقد أذنّا لك أن تذهبي إليه فتشتكي أمرك إليه ، فجاءت إلى السلطان فأنهت إليه حالها ، فرق لها رقة شديدة حتى

(١) الكامل في التاريخ ٢٠٨/٩ - ٢٠٩ .

(٢) الكامل في التاريخ ٢٢١/٩ - ٢٢٢ ، البداية والنهاية ٣٧٢/١٢ - ٣٧٣ .

دمعت عينه ، ثم أمر بإحضار ولدها ، فإذا هو قد بيع في السوق ،
فرسم بدفع ثمنه إلى المشتري ، ولم يزل واقفا حتى جيء بالغلام ،
فأخذته أمه وأرضعته ساعة وهي تبكي من شدة فرحها وشوقها إليه ،
ثم أمر بحملها إلى خيمتها على فرس مكرمة ، رحمه الله تعالى (١) .
ولاشك أن هذا الموقف وأمثاله من المواقف الأخلاقية كان لها أثر
بالغ في رفع سمعة المسلمين الأخلاقية واجتذاب الناس إلى الدخول
في الإسلام .

(١) البداية والنهاية ١٢ / ٣٦٤ .

٦ - جهاد الظاهر بيبرس ضد الصليبيين

بقي للصليبيين إمارات في ساحل الشام حيث لم يتم إجلاؤهم بالكلية، إلى أن انتهى عهد الأيوبيين وجاء عهد المماليك فكان للسلطان الظاهر بيبرس والسلطان المنصور قلاوون وابنه خليل دور كبير في القضاء على الصليبيين وإزالة ملكهم عن بلاد الشام بالكلية .

ولقد كان هناك دولة للأرمن النصارى جنوب بلاد الأناضول، وقد كانوا حلفاء للصليبيين والتتار ، ولقد أدرك الظاهر بيبرس أن أي عمل حربي يقوم به ضد الأرمن والصليبيين سيكون محرّضاً للتتار للقدوم والمشاركة مع النصارى في مواجهته ، والتتار لاتزال لهم دولة قوية في الشرق تحت إمرة حاكمهم القوي هولاکو .

ولقد كان هناك طائفة من التتار لاتخضع لهولاکو وهم مغول القفجاق ، ويسمّون القبيلة الذهبية ، وزعيمهم هو بركة خان، وقد اعتنق الإسلام ، فاعتنق الظاهر بيبرس هذه الفرصة فكتب بركة خان وحرّضه على قتال هولاکو ، فاستجاب لذلك بركة خان وكان مخلصاً في إسلامه فقاتل هولاکو حتى شغله عن المسلمين وأضعفه وفرّق جنده .

وبهذا فجح الظاهر بيبرس في هذا التخطيط الحربي الجيد حيث أمن جانب التتار وتفرغ للصليبيين (١) .

(١) الحروب الصليبية للدكتور سعيد عاشور ١٠٨٩/٢ ، والظاهر بيبرس البندقداري هو أحد سلاطين المماليك ، تولى الحكم في سنة ثمان وخمسين وستمائة حتى سنة ست وسبعين وستمائة .

ولقد كان فيما قام به السلطان بركة خان عمل جهادي كبير يُشكر عليه ، حيث رفع بجهاده هذا إصراراً ثقيلاً عن كاهل المسلمين .

ولقد سار السلطان الظاهر بيبرس من مصر بجيشه إلى الشام قاصداً جهاد الصليبيين في عام أربعة وستين وستمائة ، وقد نزل في عين جالوت ، وبعث عدة جيوش للإغارة على إمارات الصليبيين في الساحل ، فأغاروا على عكا وصور طرابلس وحصن الأكراد ، فسبوا وغنموا شيئاً كثيراً ، ثم نزل الظاهر بنفسه على مدينة صفد في الثامن من شهر رمضان ، وقد فتحها بعد حصار طويل وقتل كثيراً من أهلها ، ثم جعلها معقلاً للمسلمين فوضع فيها الجنود وزودها بالذخائر والأسلحة (١) .

ثم عاد الظاهر إلى دمشق ، ووجه جيشاً لقتال الأرمن وقد كانوا ناصروا التتار حينما غزوا الشام ، واستنجدوا بهم أيضاً حينما أراد بيبرس فتح أنطاكية ، فوجه بيبرس جيشين بقيادة الأمير قلاوون والأمير المنصور الأيوبي أمير حماة ، فالتقوا مع المسلمين عند دريساك وهي قلعة عند أنطاكية فأنزل المسلمون بالأرمن وحلفائهم هزيمة كبرى واستولوا على عدد من بلدانهم المهمة ، ومنها سبيس عاصمة أرمينية الصغرى ، ورجع المسلمون بغنائم كثيرة وعدد كبير من الأسرى ، ومن بينهم ابن هيثوم ملك أرمينية الصغرى ، ولم يستطع هيثوم استرداد ابنه إلا بمقابل تنازله عن مواقع مهمة مثل دريساك التي تتحكم في الطريق

(١) النجوم الزاهرة ١٣٨/٧ .

بين أرمينية وأنطاكية ، ومدن أخرى تتحكم في الطريق بين أرمينية والجزيرة حيث يوجد التتار حلفاء الأرمن » (١) .

وبهذا استطاع بيبرس أن يُضعف أرمينية جداً وأن يحصرها بحيث لا تستطيع أن تستنجد بأعدائه ولا أن تُنجدهم .

فتح مدينة يافا :

وفي يوم السبت ثاني جمادى الآخرة من عام خمسة وستين وستمائة خرج السلطان الظاهر بيبرس من مصر بجيشه عازماً على قصد الشام على حين غفلة ، وسار نحو يافا ، فوافقه رسل صاحبها في الطريق فاعتقلهم ، وأمر العسكر بلبس آلة الحرب في الليل وسار فصبح يافا وأحاط بها من كل جانب ، فهرب من كان فيها من الصليبيين إلى قلعتها ، فملك السلطان المدينة ، وطلب أهل القلعة الأمان فأمنهم وعوَّضهم عما نهب لهم بأربعين ألف درهم ، فركبوا في المراكب إلى عكا (٢) .

وهكذا تم فتح يافا وإجلاء الصليبيين منها بهذه السرعة والسهولة بفضل الله تعالى ثم بفضل التخطيط الحربي البارع الذي رسمه السلطان بيبرس الذي جمع الله تعالى له بين الشجاعة النادرة والرأي الثاقب .

فتح أنطاكية :

وبعد أن فتح الظاهر بيبرس يافا توجه شمالاً يريد فتح أنطاكية ،

(١) النجوم الزاهرة ٧ / ١٤٠ ، الحروب الصليبية / ١٠٩٢ .

(٢) النجوم الزاهرة ٧ / ١٤١ - ١٤٢ .

وفي طريقه إليها فتح قلعة الشقيف، وقلعة الباشورة وغيرهما .
ولما قرب من أنطاكية أمر العسكر ليلاً بلبس آلة الحرب ونزل
أنطاكية في غرة شهر رمضان ، فخرج إليه جماعة من أهلها يطلبون
الأمان وشرطوا شروطاً لم يجب إليها ، وزحف عليها ففتحها يوم
السبت رابع الشهر ، وقد كان هو أول من فتح أنطاكية وقضى على
الصلبيين فيها منذ أن استولوا عليها (١) .

وقد استمر السلطان الظاهر بيبرس في غزو الصليبيين في ساحل
الشام ، ومن ذلك ما قام به سنة تسع وستين وستمائة حيث خرج من
مصر في ثاني عشر من شهر جمادى الآخرة ، وكان معه ولده الأمير
السعيد وقد هاجم عدداً من حصون الصليبيين وقلاعهم الحصينة ،
وفتح منها قلعتي صافيتا والمجدل وحسن الأكراد (٢) .

ومما يذكر للسلطان الظاهر بيبرس كثرة خروجه للجهاد حيث كان
لا يهدأ له بال ولا يقر له قرار بعاصمة سلطنته وهو يرى البلاد
الإسلامية مهددة من الصليبيين والتتار وقد بلغت قوة دولته حداً أربى
الأعداء وجعل بعضهم يحاول الصلح معه ، فرحمه الله رحمة
واسعة .

(١) النجوم الزاهرة ٧/ ١٤٣ .

(٢) النجوم الزاهرة ٧/ ١٥٠ .

٧ - جهاد السلطان قلاوون وابنه خليل -

فتح حصن المرقب :

ذكر المؤرخ يوسف بن تَغْرِي بَرْدِي أن السلطان المنصور قلاوون^(١) خرج بجيشه من مصر إلى بلاد الشام ، ووصل إلى حصن المرقب الذي هو تحت سيطرة الصليبيين ، وذلك في العاشر من شهر صفر عام أربعة وثمانين وستمائة ، وحاصر أهل ذلك الحصن ونصب المسلمون المجانيق ورموا بها الحصن وهدموا معظم أبراجه ، واستمر ذلك إلى سادس عشر من شهر ربيع الأول حيث زحف السلطان بجيشه واستولى على ذلك الحصن ، ونزل من فيه من الصليبيين بالأمان على أرواحهم فركبوا وجهاز السلطان معهم من أوصلهم إلى أنطرسُوس^(٢) .

فتح طرابلس :

ثم ذكر أنه في عام ثمانية وثمانين وستمائة خرج السلطان المنصور قلاوون من الديار المصرية بعساكره لحصار طرابلس ، ووصل في مستهل شهر ربيع الأول إلى طرابلس وحاصرها ، ونصب عليها المجانيق ، وضايق أهلها مضايقة شديدة إلى أن ملكها عنوة في يوم الثلاثاء الرابع عشر من شهر ربيع الأول ، وشمل القتل والأسر سائر

(١) هو السلطان المنصور قلاوون بن عبد الله التركي ، تولى الحكم سنة ثمان وسبعين وستمائة إلى أن توفي سنة تسع وثمانين وستمائة .

(٢) النجوم الزاهرة ٣١٥/٧ .

من فيها من الصليبيين ، وغرق منهم في الماء جماعة كثيرة ، كما تم الاستيلاء على عدد من الحصون التابعة لها (١) .

فتح عكا :

كان السلطان المنصور قلاوون قد عزم على حصار مدينة عكا ، وبدأ بالاستعداد لذلك ، ولكن وافته المنية وهو في مخيمه خارج القاهرة بعد مرض أصابه ، ذكر ذلك ابن تغري بردي ثم ذكر أنه لما آل الأمر إلى ولده السلطان خليل بن قلاوون (٢) واستتب له الأمر شرع في إكمال ما عزم عليه أبوه ، فتجهز للسفر ، وأرسل إلى البلاد الشامية ليستعدوا للغزو معه ، وعمل آلات الحصار وجمع الصناع إلى أن تم أمره فخرج بعساكره من الديار المصرية في ثالث شهر ربيع الأول من سنة تسعين وستمائة ، وسار حتى نازل عكا في يوم الخميس رابع شهر ربيع الآخر ، فاجتمع عنده على عكا من الأمم ما لا يحصى كثرة ، وكان المطوعة أكثر من الجند ومن في الخدمة ، ونصب عليها المجانيق الكبار والصغار ، ونقب النقبون في سورها عدة نقوب .

قال : وأنجد أهل عكا صاحب قبرص بنفسه ، وفي ليلة قدومه عليهم أشعلوا نيراناً عظيمة لم ير مثلها فرحاً به ، وأقام عندهم ما يقرب من ثلاثة أيام ، ثم عاد عندما شاهد انحلال أمرهم وعظم مآدهمهم ، ولم يزل الحصار عليها والجد في أمر قتالها إلى أن انحلت

(١) النجوم الزاهرة ٣٢١/٧ .

(٢) تولى الحكم بعد أبيه ما بين عامي تسعة وثمانين وستمائة وثلاثة وتسعين وستمائة .

عزائم من بها وضعف أمرهم ، واختلفت كلمتهم ، هذا والحصار عمّال في كل يوم ، واستشهد عليها جماعة من المسلمين .

فلما كان سحر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى ركب السلطان والعساكر وزحفوا عليها قبل طلوع الشمس وضربوا الكوسات فكان لها أصوات مهولة وحسّ عظيم مزعج ، فحال ملاصقة العسكر لها وللأسوار هرب الفرنج ، ومُلكت المدينة بالسيف ، ولم تمض ثلاث ساعات من النهار المذكور إلا وقد استولى المسلمون عليها ودخلوها ، وطلب الفرنج البحر فتبعتهم العساكر الإسلامية تقتل وتأسر ، فلم ينج منهم إلا القليل (١) .

فتح مدينة صور :

قال ابن تَغْرِي بَرْدِي : وكان السلطان [يعني خليل بن قلاوون] عند منازلته عكا قد جهز جماعة من الجند مقدمهم الأمير علم الدين سنجر الصوابي الجاشنكير إلى « صور » لحفظ الطرق وتعرّف الأخبار ، وأمره بمضايقة صور ، فبينما هو في ذلك لم يشعر إلا بمراكب المنتهزمين من عكا قد وافت ميناء صور ، فحال بينها وبين الميناء ، فطلب أهل صور الأمان فأمنّهم على أنفسهم وأموالهم ويسلموا صور فأجيبوا إلى ذلك ، فتسلّمها .

ثم ذكر أن السلطان خليل لما علم بذلك جهز إليها من خربها وهدم أسوارها وأبنيتها (٢) .

(١) النجوم الزاهرة ٨/ ٥ - ٧ .

(٢) النجوم الزاهرة ٨/ ٨ .

نهاية الصليبيين في الشام :

وبعد هذه الفتوح بقي للصليبيين في الشام مدينة صيدا وعثليث وأنطَرطوس ، وكان السلطان خليل بن قلاوون قد وُلّي على نيابة الشام علم الدين سنجر الشجاعى فحاصر مدينة صيدا حتى فتحها بالآمان لاهلها يوم السبت خامس عشر رجب من سنة تسعين وستمائة، ثم فتح قلعة جَبِيل وخربها بأمر السلطان ، ثم فتح عثليث بعد شهر .

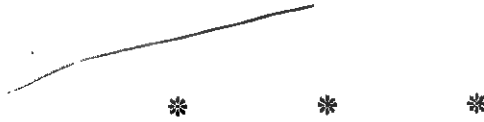
وأما أهل أنطَرطوس فإنهم لما بلغهم أخذ هذه القلاع عزموا على الهرب ، فجرد الأمير سيف الدين بَلْبَان الطَّبَّاحي عسكرا، فلما أحاطوا بها ليلة الخميس خامس شعبان ركبوا البحر وهربوا إلى جزيرة أرواد، وهي بالقرب منها ، فندب إليها السَّعْدِيَّ بما كان أحضره من مراكب فأخلوها ، وكان فتح هذه المدن الست في ستة شهور (١) .

وهكذا قام السلطان المنصور قلاوون بمشروع جهادي كبير لاستئصال بقية الصليبيين في الشام ، فبدأ بفتح حصن المرقب الحربي الذي كان واسعا وفي غاية الأهمية ، ثم ثنى بفتح مدينة طرابلس التي كانت مشهورة بحصانتها ومناعة سورها ، ثم ثلث بالعزم على حصار مدينة عكا فوافته المنية قبل ذلك ، فحقق له أمنيته ابنه السلطان خليل الذي خلَّفه في الحكم ، وكانت عكا أهمّ مراكز الصليبيين في ساحل الشام .

(١) النجوم الزاهرة ٨ / ١٠ - ١١ .

ثم تَوَجَّ السلطان خليل بن قلاوون أعماله الجهادية بفتح بقية المدن والحصون التي استولى عليها الصليبيون .

وبهذه الفتوحات انتهى وجود الصليبيين في بلاد الإسلام الذي بدأ في عام ثمانية وسبعين وأربعمائة واستمر حتى عام تسعين وستمائة للهجرة، وهذا يعني أن احتلال الصليبيين لأجزاء من بلاد المسلمين استمر اثنتي عشرة ومائتي سنة .



مواقف وعبد

فى

جهاد المسلمين مع التتار

خروج التتار وسبب ذلك

في سنة ست عشرة وستمائة سار التتار صحبة ملكهم جنكزخان قادمين من بلادهم في جبال طمغاج من أرض الصين، قاصدين قتال خوارزم شاه أمير خراسان وبلاد ماوراء النهر، وكان سبب ذلك أن خوارزم شاه أمر بنهب بعض تجارهم وكانت معهم أموال كثيرة، فلما علم بهم خوارزم أقبل من خراسان بجيشه فاقتتل معهم في بلاد ماوراء النهر قتالا شديداً، ثم رجع إلى بلاده.

ولقد عبر التتار نهر جيحون واستولوا على بلاد خراسان وماحولها حتى وصلوا إلى حدود العراق وأفسدوا في الأرض وقتلوا مئات الألوف من المسلمين وغيرهم، وفي بيان هول مصيبتهم يقول ابن الأثير رحمه الله تعالى: هذا فصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقرت الليالي والأيام عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل إن العالم منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام وإلى الآن لم يُبتلوا بمثلها لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن مايقاربها ولايدانيها (١).

ثم كانت النكبة العظمى في بغداد حيث أقبل التتار بقيادة سلطانهم هولاكوخان في مائتي ألف فقتلوا الخليفة المستعصم بالله العباسي وقتلوا مئات الألوف في بغداد من العلماء والوجهاء وعامة الناس وذلك في عام ستة وخمسين وستمائة (٢).

(١) الكامل في التاريخ ٣٢٩/٩.

(٢) البداية والنهاية ٢٠٠/٣.

وهذا الذي حصل للمسلمين في الرعب من التتار وعدم الإقدام على مواجهتهم يعتبر مثلاً للإخلاق والراحة والنعيم ، والبعد عن الحياة الجهادية ، فهؤلاء المئات من الألوف في بغداد ومن قبلهم مئات الألوف من المسلمين في بلدان المشرق لوأنهم كانوا متدربين على القتال ويملكون الروح الجهادية لاستطاع أهل كل بلد أن يدافعوا عن أنفسهم ولَصَغُف التتار عن مقاومة جميع أهل تلك البلاد .

إن الإخلاق إلى الراحة والبعد عن الحياة الجهادية من الأمور المخالفة لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنة أصحابه ، حيث لم يكن في عهدهم أناس مخصوصون للقتال وبقية المسلمين لأشأن لهم بذلك ، بل إن الصحابة رضي الله عنهم كانوا كلهم مجاهدين ، وحينما داهمت جيوش الكفار المدينة النبوية في أحد الأحزاب خرج المسلمون جميعاً بقيادة النبي ﷺ للقتال ، ولم يبق إلا الشيوخ الكبار والنساء والأطفال .

ولقد ظلت هذه الروح الجهادية والمقدرة على القتال عند المسلمين في عصورهم الأولى ، وقد تقدم ذكر أمثلة لذلك .

ثم خَبَتْ هذه الروح الجهادية شيئاً فشيئاً حتى نسي كثير من المسلمين الجهاد ، وأصبحوا عاجزين حتى عن الدفاع عن أنفسهم ، وقد ظهر هذا العجز جلياً في استسلامهم وتذللهم للتتار بدون مقاومة تذكر .

وفي عام ثمانية وخمسين وستمائة عبر التتار نهر الفرات قاصدين بلاد الشام بقيادة ملكهم هولأكو ، فاستولوا على حلب ، ثم زحفوا إلى دمشق فاستولوا عليها ، وبذلك استولوا على بلاد الشام كلها .

- مواقف السلطان مظفر الدين قطز -

معركة عين جالوت :

وفي أثناء ذلك سار بطل الإسلام الكبير مظفر الدين قطز التركي حاكم مصر بالجيش المصري إلى الشام ، وانضم إليه جيش من الشام ، وكان هولاء في حلب وقد وجه إلى دمشق قائده الكبير «كتبغانوين» وهذا القائد هو الذي قام بأكثر حروب التتار منذ عهد جنكزخان جد هولاء ، وقد كان التتار يَتَيَمَّنُونَ به لكثرة ما حقق لهم من انتصارات .

فلما وصل قطز بالجيش المصري توجه إلى جيش التتار ، ودارت بين المسلمين والتتار معركة هائلة في « عين جالوت » كانت نهايتها انتصار حاسم للمسلمين ، وهذه أول مرة يتصر فيها المسلمون على التتار التابعين للوكهم ، وقد أحدثت هذه المعركة فرحة عظيمة للمسلمين ، واندحاراً كبيراً للتتار (١) .

وهكذا هزم الله تعالى التتار لأول مرة على يد أولئك الأبطال من الجيش المصري ومن انضم إليه من جيش الشام بقيادة مظفر الدين قطز ، وحاز هذا الأمير الشجاع الشهيم على شرف القيام بمواجهة التتار وهزيمتهم .

ولقد كانت هزيمة التتار في عرف المسلمين - آنذاك - أمراً بعيد الاحتمال ، ومن أجل ذلك مالأهم بعض أمراء المسلمين وخضعوا لهم ، واستعز النصارى وتطاولوا على المسلمين وأهانوهم ظناً منهم أن الدولة ستستمر للتتار ، ولكن الله تعالى بفضله وإحسانه أخلف ظنون التتار

(١) البداية والنهاية ١٣/٢٣٣ - ٢٣٥ ، النجوم الزاهرة ٧/٧٨ - ٨٣ .

والنصارى والمتخاذلين من المسلمين فنصر عباده المؤمنين وأعز بهم دينه .
إن معركة عين جالوت معركة فاصلة ، فصلت بين الإسلام والكفر ، وبين دولة المسلمين ودولة الكفار ، فالتار الذين انتصروا على أكثر بلاد المسلمين كان في يقينهم أنهم سيستولون على مصر وبقية بلاد المسلمين ، ولكن جنود مصر البواسل - بمعونة جند الشام - كانوا لهم بالمرصاد ، فخيّبوا آمالهم وأبطلوا أحلامهم .

ولقد قُتل في هذه المعركة الفاصلة « كتيبغانوين » قائد التتار الكبير ، ورجع هولاكو ملك التتار نحو المشرق خاسئاً ذليلاً ، وتم تطهير شمال الشام من التتار على يد الظاهر بيبرس أحد قادة قطز الأقوياء .

مواقف جهادية في هذه المعركة :

من ذلك مواقف قائد المسلمين مظفر الدين قطز حاكم مصر ، ولا بد قبل بيان مواقفه من إعطاء نبذة موجزة عنه ، فهو محمود بن مودود من سلالة بيت خوارزم شاه حاكم بلاد المشرق الذي قضى التتار على مملكته ، وقد نُقل قطز وهو صغير إلى مصر حيث أصبح مملوكاً للأمير صالح أيوب بن الكامل ، ثم انتقل إلى ملك الأمير عز الدين أيبك التركماني حاكم مصر ، وقد رأى فيه نجابة وشجاعة فقرّبهُ إليه .

يقول عنه الإمام الذهبي : وكان المظفر أكبر مماليك المعز أيبك التركماني ، وكان بطلاً شجاعاً مقداماً حازماً حسن التدبير ، يرجع إلى دين وإسلام وخير ، وله اليد البيضاء في جهاد التتار ، فعوض الله شبابه في الجنة ورضي عنه ذكره ابن تغري برّدي (١) .

(١) النجوم الزاهرة ٨٤ / ٧ .

وقال ابن كثير : لما قُتِلَ أستاذُه المعز قام بتولية ولده نور الدين المنصور علي ، فلما سمع بأمر التار خاف أن تختلف الكلمة لصغر سنِّ ابن أستاذه فعزله ودعا إلى نفسه ، فبويع في ذي القعدة سنة سبع وخمسين وستمائة (١) .

ومن مواقفه العالية في هذه المعركة ما ذكره الحافظ ابن كثير قال : ذُكر عنه أنه لما كان يوم المعركة بعين جالوت قُتل جواده ، ولم يجد أحداً في الساعة الراهنة من الوشاقية الذين معهم الجنائب (٢) ، فترجَّل وبقي واقفاً على الأرض ثابتاً ، والقتال عمال في المعركة ، وهو في موضع السلطان من القلب ، فلما رآه بعض الأمراء ترجل عن فرسه وحلف على السلطان ليركبنها ، فامتنع وقال لذلك الأمير : ما كنت لأحرم المسلمين نفعا ، ولم يزل كذلك حتى جاءته الوشاقية بالخيول فركب ، فلأَمَّه بعض الأمراء وقال : ياخونُدَ لِمَ لاركبت فرس فلان؟ فلو أن بعض الأعداء رآكَ لقتلك وهلك بسببك الإسلام ، فقال : أما أنا فكنت أروح إلى الجنة ، وأما الإسلام فله رب لا يضيعه ، قد قُتل فلان وفلان وفلان ، - حتى عد خلقاً من الملوك - فأقام للإسلام من يحفظه غيرهم ، ولم يضيع الإسلام (٣) .

فهذا موقف جليل لهذا الأمير البطل دل على تواضعه وعدم اهتمامه بحظ نفسه في سبيل مصلحة المسلمين العامة ، كما يدل على

(١) البداية والنهاية ٢٣٨/١٣ ، النجوم الزاهرة ٨٤/٧ .

(٢) الوشاقية هم سائسو الخيل .

(٣) البداية والنهاية ٢٣٨/١٣ .

تذكره عظمة الإسلام والهدف العالي الذي ينشده المؤمنون حقاً وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والجنة .

وقال الحافظ ابن كثير : وقد رُوي عنه أنه لما رأى عصائب التتار قال للأمرء والجیوش الذين معه : لاتقاتلوهم حتى تنزل الشمس وتفيء الظلال وتهب الرياح ، ويدعوا لنا الخطباء والناس في صلاتهم، رحمه الله تعالى (١) .

وهذه لفظة جيدة تدل على اهتمام مظفر الدين بالاعتماد على الله تعالى واستمداد النصر منه ، حيث أمل بموافقة ساعة صلاة الجمعة أن يستجيب الله جل وعلا دعاء خطباء الجمعة والمسلمين لهم بالنصر .

وقال الحافظ ابن كثير أيضاً في بيان انتصار المسلمين وهزيمة التتار: وقُتل أميرهم « كتبخانين » في المعركة وأسر ابنه وكان شاباً حسناً، فأحضر بين يدي المظفر قطز فقال له : أَهْرَبَ أبوك ؟ قال: إنه لا يهرب، فطلبوه فوجدوه بين القتلى ، فلما رآه ابنه صرخ وبكى ، فلما تحققه المظفر سجد لله تعالى ، ثم قال : أنام طيباً ، كان هذا سعادة التتار ، وبقتله ذهب سعدهم .

قال : وهكذا كان كما قال : ولم يفلحوا بعده أبداً ، وكان قتله يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان ، وكان الذي قتله الأمير أقوش الشمسي رحمه الله تعالى (٢) .

وهذا الخبر فيه دلالة على خبرة مظفر الدين قطز بمكامن القوة عند الأعداء ، حيث أدرك أن قوة التتار ونجاحهم يتمثلان في قائدهم الكبير

(١) البداية والنهاية ٢٣٩/١٣ .

(٢) البداية والنهاية ٢٤٠/١٣ .

كتبغانوين ، الذي توالى انتصاراته منذ عهد جنكيزخان جد ملكهم هولوكو ، وقد كان الأمر كما قال قطز حيث انتكس التتار بعد مقتله وتقلص ملكهم .

وفي سجود مظفر الدين لله تعالى شكرا دلالة على عظمة اهتمامه بنصر الإسلام والمسلمين رحمه الله تعالى .

ومن مواقفه الجهادية أثناء المعركة مذكره المؤرخ يوسف ابن تَغْرِي بَرْدِي قال : ثم رحل الملك المظفر قطز بعساكره من غزة ونزل الغور بعين جالوت ، وفيه جموع التتار في يوم الجمعة خامس عشرين شهر رمضان [يعني من عام ثمانية وخمسين وستمائة] ووقع المصاف بينهم في اليوم المذكور وتقاتلا قتالا شديداً لم يُر مثله ، حتى قُتل من الطائفتين جماعة كثيرة ، وانكسرت ميسرة المسلمين كسرة شنيعة ، فحمل المظفر - رحمه الله - بنفسه في طائفة من عساكره وأردف الميسرة حتى تحايوا وتراجعوا ، واقتحم الملك المظفر القتال وباشر ذلك بنفسه ، وأبلى في ذلك اليوم بلاء حسنا ، وعظم الحرب ، وثبت كل من الفريقين مع كثرة التار ، والمظفر مع ذلك يشجع أصحابه ويحسن لهم الموت ، وهو يكرُّ بهم كرة بعد كرة ، حتى نصر الله الإسلام وأعزه ، وانكسرت التتار ، وولوا الأدبار على أقبح وجه بعد أن قُتل معظم أعيانهم ، وأصيب مُقدَّم العساكر التتارية كتبغانوين (١) .

وهكذا تبين لنا دور المظفر قطز رحمه الله في نجاح المسلمين في تلك المعركة حيث كانوا من قبل إذا انهزمت طائفة منهم انهزموا أمام

(١) النجوم الزاهرة ٧/ ٧٩ .

التتار ، ولكنه استطاع بمن معه من الأبطال أن يسدّ تلك الثغرة التي انفتحت بانكسار ميسرة جيش المسلمين ، ولقد كان لتشجيعه الجيش - وهو القائد - الأثر الكبير في ثبات أفرادهِ حتى تحقق لهم النصر بإذن الله تعالى .

رؤيا صادقة تحمل البشارة بالنصر :

لقد كان من أهم الحوافز للأمير مظفر الدين على الإقدام على حرب التتار رؤيا صادقة رآها في صغره ، وفي بيان ذلك يقول المؤرخ يوسف بن تغري بردي نقلاً عن الشيخ قطب الدين اليونيني قال : حكى لي المولى علاء الدين بن غانم في غرة شوال سنة إحدى وتسعين وستمائة ببلبك ، قال : حدثني المولى تاج الدين أحمد بن الأثير - تغمده الله برحمته - مامعناه : أن الملك الناصر صلاح الدين يوسف - رحمه الله - لما كان على « برزة » في أواخر سنة سبع وخمسين وصله قُصَاد من الديار المصرية يكتب يخبرونه فيها أن قطز تسلطن وملك الديار المصرية وقبض على ابن أستاذه .

قال المولى رحمه الله : فطلبني السلطان الملك الناصر فقرأت عليه الكتب ، وقال لي : خذ هذه الكتب وروح إلى الأمير ناصر الدين القيمري والأمير جمال الدين بن يغمور أوقف كلا منهما عليها ، قال : فأخذتها وخرجت فلما بعدت عن الدهليز لقيني حسام الدين البركة خاني وسلم علي وقال : جاءكم بريدي أو قُصَاد من الديار المصرية؟ فوريت وقلت : ماعندي علم بشيء من هذا ، قال : قطز تسلطن وتملك الديار المصرية ويكسر التتار .

قال تاج الدين : فبقيت متعجبا من حديثه وقلت له : أيش هذا القول ؟ ومن أين لك هذا ؟ قال : والله هذا قطز خشداشي^(١)، كنت أنا وإياه عند الهيجاوي من أمراء مصر ونحن صبيان ، وكان عليه قمل كثير ، فكنت أسرح رأسه على أنني كلما أخذت منه قملة أخذت منه فلسا أو صفعته ، ثم قلت في غضون ذلك : والله ماأشتهي إلا أن يرزقني الله إمرة خمسين فارسا ، قال لي : طيبُ قلبك أنا أعطيك إمرة خمسين فارسا ، فصفعته وقلت : أنت تعطيني إمرة خمسين ! قال : نعم ، فصفعته وقال لي : وألك علة ! أيش يلزم لك إلا إمرة خمسين فارسا ؟ أنا والله أعطيك ، قال : ويلك كيف تعطيني ؟ قال : أنا أملك الديار المصرية وأكسر التتار وأعطيك الذي طلبت ، قلت : ويلك أنت مجنون ! أنت بقمملك تملك الديار المصرية ؟ قال : نعم ، رأيت النبي ﷺ في المنام وقال لي : أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار ، وقول النبي ﷺ حق لاشك فيه ، قال : فسكتُ وكنت أعرف منه الصدق في حديثه وعدم الكذب .

قال تاج الدين : فلما قال لي هذا قلت له : وردت الأخبار بأنه تسلطن ، قال لي : والله هو يكسر التتار .

قال تاج الدين : فرأيت حسام الدين البركة خاني - الحاكي ذلك - بالديار المصرية بعد كسر التتار فسلم علي ، وقال : يامولاي تاج الدين تذكُر ماقلت لك في الوقت الفلاني ؟ قلت : نعم ، قال : والله حالما عاد الملك الناصر من قَطْيا دخلت الديار المصرية أعطاني^(٢)

(١) أي كان تابعا لي .

(٢) يعني مظفر الدين قطز .

إمرة خمسين فارساً كما قال : لازائد على ذلك (١).

فهذه الرؤيا الصالحة كانت هي الدافع الأكبر لمظفر الدين قطز بأن يُقدم على قتال التتار بعزم وقوة، بعدما نكل عن ذلك كثير من الأمراء أو قاتلوهم بضعف وخوف .

لقد دخل مظفر الدين تلك المعركة وهو على يقين قوي وثقة كاملة بنصر الله تعالى له ولجنده، كما كان الصحابة رضي الله عنهم يدخلون المعارك وهم يحملون في أفكارهم وعد النبي ﷺ لهم بالتمكين في الأرض ، ومادامت هذه الرؤيا قد انتشرت - كما جاء في هذا الخبر - فإن الذين علموا بها من جنوده وقادته سيكونون أيضاً على درجة عالية من الثقة واليقين بالنصر ، فكان ذلك دافعا قويا لهم إلى بذل كل ما يستطيعون من طاقة في سبيل الله تعالى ، وبذلك انتصروا على أعدائهم .

وبعد معركة عين جالوت تجرأ المسلمون على أعدائهم من التتار وكانت لهم معهم مواقف جهادية مشرقة .

ومن ذلك ما ذكر المؤرخ يوسف بن تغري بردي من أن التتار قدموا إلى الشام في أوائل شهر محرم من عام تسعة وخمسين وستمائة، فلما سمع بهم أهل حلب انسحب جيشها إلى حماة ، ثم انسحب جيش حلب وحماة إلى حمص فلما علم بهم التتار لحقوا بهم وكانوا في سنة آلاف ، فخرج إليهم المنصور صاحب حماة والأشرف صاحب حمص والجوكنداري العزيزي صاحب حلب بعساكرهم، فحمل

(١) النجوم الزاهرة ٨٧/٧ - ٨٩ ، وانظر البداية والنهاية ٢٣٩/١٣ .

المسلمون على التتار حملة رجل واحد فهزموهم وقتلوهم شر قتلة ،
وهرب أمير التتار بيدرا في نفر يسير ، وكانت الواقعة عند قبر خالد بن
الوليد رضي الله عنه (١) .

(١) النجوم الزاهرة ١٠٦/٧ - ١٠٧ .

- مواقف الظاهر بيبرس في جهاد التتار (١) -

من الأعلام الذين كان لهم دور فعال في جهاد التتار السلطان الظاهر بيبرس حاكم مصر والشام الذي خلف السلطان مظفر الدين قطز ، وقد كان للظاهر بيبرس دور مهم في معركة عين جالوت فقد كان من أبرز قادتها ، وهو الذي قام بمهمة ملاحقة التتار حتى مدينة حلب .

يقول الحافظ ابن كثير في بيان مواقفه مع التتار : وقد كان هولاء كوخان لما بلغه ما جرى على جيشه من المسلمين بعين جالوت أرسل جماعة من جيشه الذين معه كثيرين ليستعيدوا الشام من أيدي المسلمين فحيل بينهم وبين ما يشتهون ، فرجعوا إليه خائبين خاسرين ، وذلك أنه نهض إليهم الهزبر الكاسر والسيف الباتر الملك الظاهر ، فقدم دمشق ، وأرسل العساكر في كل وجه لحفظ الثغور والمعاقل بالأسلحة ، فلم يقدر التتار على الدنو إليه ، ووجدوا الدولة قد تغيرت ، والسواعد قد شمرت ، وعناية الله بالشام وأهله قد حصلت ، ورحمته بهم قد نزلت ، فعند ذلك نكصوا على أعقابهم ، وكروا راجعين القهقري ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات (٢) .

فهذا موقف يذكر للأمير الظاهر بيبرس البندقداري حيث سارع

(١) هو السلطان الظاهر بيبرس البندقداري ، تولى الحكم في سنة ثمان وخمسين وستمائة بعدما قتل السلطان مظفر الدين قطز ، وقد استمر الظاهر بيبرس في حكم مصر والشام حتى سنة ست وسبعين وستمائة حيث توفي في هذه السنة .

(٢) البداية والنهاية ١٣/٢٣٦

إلى ملاقاته التتار قبل أن يصلوا إلى دمشق، وفرق جنده على الثغور والمعاقل، فحفظ بلاد الشام، وأرعب التتار حتى نكصوا على أعقابهم وعرفوا أنه قد أصبح للمسلمين دولة قوية.

ومما يدل على عظمة هيبة السلطان الظاهر بيبرس عند التتار ما ذكره ابن تغري بردي من أن ملك التتار «أبغابن هولاكو» أمر عساكره بقصد البلاد الشامية، فخرج عسكره في عشرة آلاف فارس، وعليهم الأمير صمغرا والبرواناه (١)، فلما بلغهم أن الملك الظاهر بالشام أرسلوا ألفاً وخمسمائة من المغل ليتجسسوا الأخبار ويغيروا على أطراف بلاد حلب، وكان مقدمهم أمال بن بيغونوين، ووصلت غارتهم إلى عيتاب ثم إلى قسطون (٢)، ووقعوا على تركمان نازلين بين حارم وأنطاكية فاستأصلوهم.

قال: فتقدم الملك الظاهر بتجفيل البلاد (٣) ليحمل التتار الطمع فيدخلوا فيتمكن منهم، وبعث إلى مصر بخروج العساكر، فخرجت ومقدمها الأمير يئسري، فوصلوا إلى السلطان وخرج بهم، فسبق إلى التتار خبره فولوا على أعقابهم (٤).

وهكذا تبدلت الموازين والقوى، فأصبح التتار يرهبون من المسلمين.

(١) البرواناه لفظ فارسي معناه في الأصل الحاجب، ثم أطلق على الوزير الأكبر وهو سليمان بن علي صاحب معين الدين وزير السلاجقة حكام بلاد الأناضول - عن هامش النجوم الزاهرة - .

(٢) عيتاب بلدة بين حلب وإنطاكية، وقسطون حصن من أعمال حلب.

(٣) أي إظهار الجفل والخوف من التتار.

(٤) النجوم الزاهرة ٧/ ١٥٥ - ١٥٦.

بعد أن كان المسلمون يرهبون منهم ، والناس هم الناس ، ولكن لما كان المسلمون متفرقين ومتناحرين فيما بينهم وليس عندهم اهتمام بجهاد الأعداء فإنهم قد ضعفوا وأصبحوا نهبا لأي دولة قوية تغير عليهم ، ولما ظهر فيهم الحاكمان القويان مظفر الدين قطز ثم الظاهر بيبرس قاما بتوحيد بلاد الشام ومصر في دولة واحدة قوية ، وكونا الجيوش القوية التي تحمل روح الجهاد .

معركة ألبيرة :

لقد اغتتم التتار فرصة بُعد السلطان الظاهر بيبرس عن شمال الشام فجاءوا من المشرق وتحالفوا مع الروم والسلاجقة الذين يحكمون جزءاً من بلاد الأناضول ، حتى وصلوا إلى بلدة « ألبيرة » ^(١) ، وفي هذا الخبر ذكر الحافظ ابن كثير أن التتار نزلوا على مدينة « ألبيرة » في ثلاثين ألف مقاتل ، خمسة عشر ألفاً من المغول ، وخمسة عشر ألفاً من الروم ، والمقدم على الجميع « البرواناه » ^(٢) بأمر « أبغا » ملك التتار ، ومعهم جيش الموصل وجيش ماردين والأكراد ، ونصبوا عليها ثلاثة وعشرين منجنيقا ، فخرج أهل ألبيرة في الليل فكبسوا عسكر التتار ، وأحرقوا المنجنيقات ونهبوا شيئاً كثيراً ، ورجعوا إلى بيوتهم سالمين ، فأقام عليها الجيش مدة ، ثم رجعوا عنها بغیظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال ^(٣) .

(١) هي بلدة تقع بين مدينة حلب وبلاد الروم .

(٢) هو معين الدين سليمان بن علي صاحب كما تقدم .

(٣) البداية و النهاية ١٣ / ٢٦٩ .

هذا وإن مقام به أهل بلدة البيرة يعتبر مثلاً عالياً للشهامة والشجاعة، وذلك لا يكون غالباً إلا نتيجة للإيمان القوي وابتغاء فضل الله تعالى وثوابه .

إن الذي يمنع الناس من الإقدام على القتال هو الخوف من القتل، ولكن العقلاء إذا تذكروا بأن الأعداء إذا استولوا على بلادهم قتلوهم شر قتلة وأهانوهم وانتهكوا أعراضهم . . إذا تذكروا ذلك فإنهم يُقدمون جميعاً على قتال الأعداء لأنه إن قُتل بعضهم في ميدان المعركة كان أعزَّ لهم وأكرم ، هذا في مقتضى العقل السليم ، فكيف بالمؤمنين الذين وعدهم الله تعالى بالجنة في الآخرة إذا باعوا نفوسهم له جل وعلا وبذلوا طاقتهم في الدفاع عن الإسلام والمسلمين ؟!

وإن مما يُذكر للسلطان الظاهر بيبرس حاكم مصر والشام أنه لما سمع بنزول التتار على البيرة أنفق على الجيش ستمائة ألف دينار، ثم ركب سريعا وفي صحبته ولده السعيد، فلما كان في أثناء الطريق بلغه رحيل التتار عنها فعاد إلى دمشق (١) .

فهذا موقف جهادي كبير لهذا السلطان ، يدل على اهتمامه البالغ بأمور المسلمين والقيام بنجدتهم وإرهاب الكافرين، ولعل رحيل الأعداء عن ذلك البلد كان سببه ما بلغهم من قصد السلطان إليهم، وهو الذي اشتهر عندهم بالقوة والشجاعة والحزم .

(١) البداية والنهاية ١٣/ ٢٦٩ .

معركة أبلُستين (١) :

ومن أبرز مواقف السلطان الظاهر بيبرس الجهادية ما ذكره ابن تَغْرِي بَرْدِي من أن السلطان خرج من القاهرة يوم الخميس العشرين من شهر رمضان عام ستة وسبعين وستمائة نحو الشام قاصدا بلاد الروم ، فلما وصل بلاد الروم قَدِمَ الأمير شمس الدين سُنْقُرَ الأشقر على جماعة من العسكر وأمره بالمسير بين يديه ، فوقع على كتيبة من التتار وعدتهم ثلاثة آلاف فارس ، ومَقْدَمُهُم «كراي» فهزموهم سنقر الأشقر وأسر منهم طائفة و ذلك في يوم الخميس تاسع ذي القعدة .

ثم ورد الخبر على الظاهر بأن عسكر الروم والتتار مع البرواناه اجتمعوا على نهر جِيحَان (٢) ، فلما صعد العسكر الجبل أشرف على صحراء أبلُستين فشاهد التتار قد رتبوا عساكرهم أحد عشر فرقة في كل فرقة ألف فارس ، وعزلوا عسكر الروم عنهم خوفا من باطن يكون لهم مع المسلمين، وجعلوا عسكر الكرج فرقة واحدة .

قال : فلما تراءى الجمعان حملت ميسرة التتار حملة واحدة وصدموا سنجق الملك الظاهر ، ودخلت طائفة منهم بينهم وشقوا الميسرة وساقوا إلى الميمنة ، فلما رأى الملك الظاهر ذلك أردفهم بنفسه ، ثم لاحت التفاتة منه فرأى الميسرة قد أتت عليها ميمنة التتار ، فأمر الظاهر جماعة من أصحابه الشجعان بإردافها ، ثم حمل هو بنفسه رحمه الله ، فلما رآته العساكر حملت نحوه برُمْتها حملة رجل

(١) مدينة مشهور ببلاد الروم ، وقد كانت آنذاك في سلطان السلاجقة .

(٢) هو نهر بالمصيصة ومنبعه من بلاد الروم .

واحد، فترجلل التار عن خيولهم وقاتلوا قتال الموت فلم يغن عنهم ذلك شيئاً ، وصبر لهم الملك الظاهر وعسكره وهو يكرُّ في القوم كالأسد الضاري ، ويقتحم الأهوال بنفسه ، ويشجع أصحابه ويطيّب لهم الموت في الجهاد إلى أن أنزل الله تعالى نصره على المسلمين ، وانكسر التار أقبح كسرة ، فمنهم من قُتل ومنهم من أُسر ، وبقيتهم فروا إلى الجبال فاعتصموا بها ، فقصدتهم العساكر الإسلامية وأحاطوا بهم ، فترجلوا عن خيولهم وقاتلوا فقتل منهم جماعة .

واستشهد من المسلمين جماعة ، منهم عدد من الأمراء (١) .

وإنه لواضح من ملاحظة أحداث هذه المعركة أثر السلطان الظاهر بيبرس في إنجاحها ، وذلك بتشجيعه أفراد جيشه على الثبات وثباته بنفسه واقتحامه المخاطر ، وملاحظاته الدقيقة على مواقع الخلل في جيشه .

وإن مما يذكر لقادة ذلك الجيش وأفراده ثباتهم الراسخ أمام هجوم الأعداء العنيف بالرغم مما اعترى بعضهم من الانكسار المؤقت ولكن كان لشجعان المسلمين أثر في صد الأعداء حتى تراجع أفراد الجيش الإسلامي ، ثم صبروا لأعدائهم الذين استقتلوا وأظهروا التحدي حتى أنزل الله تعالى نصره على عباده المؤمنين وخذل أعداء المعتدين .



(١) النجوم الزاهرة ٧/ ١٦٦ - ١٦٩ ، البداية والنهاية ١٣/ ٢٧١ - ٢٧٢ .

- مواقف السلطان قلاوون (١) -

معركة حول حمص :

ذكر المؤرخ يوسف بن تَغْرِي بَرْدِي أن السلطان قلاوون سار من مصر إلى دمشق في عام ثمانين وستمائة ، وأنه ورد عليه خبر مجيء التتار إلى البلاد الشامية وهو بدمشق فتها لقتالهم ، وأرسل يطلب العساكر المصرية ، وبعد قليل حضرت عساكر مصر إلى دمشق ، واجتمعت العساكر عند السلطان ، ولم يتأخر أحد من التركمان والعربان وسائر الطوائف .

ووصل الخبر بوصول التتار إلى أطراف حلب ، فخلت حلب من أهلها وجندها ونزحوا إلى جهة حماة وحمص ، وتركوا الغلال والخواصل والأمتعة .

ثم ورد الخبر بوصول مَنكُوتَمُر بن هولاكو ملك التتار إلى عَيْتَاب وماجاورها في يوم الأحد سادس عشرين جمادى الآخرة ، فخرج السلطان المنصور قلاوون بعساكره في يوم الأحد المذكور ، وخيم بالمرج ، ووصل التتار إلى بَغْرَاس ، فقدم السلطان المنصور عسكره أمامه ، ثم سافر في آخر جمادى الآخرة وسار حتى نزل بعساكره على حمص في شهر رجب .

وشرعت التتار تتقدم قليلا قليلا بخلاف عادتهم ، فلما وصلوا حماة أفسدوا بنواحيها ، واستمر عسكر السلطان بظاهر حمص على حاله إلى أن وصلت التتار إليه في يوم الخميس رابع عشر شعبان ،

(١) هو السلطان المنصور قلاوون بن عبد الله التركي ، تولى الحكم سنة ثمان وسبعين وستمائة إلى أن توفي سنة تسع وثمانين وستمائة .

فركب المنصور بعساكره وصافَّ العدو ، والتقى الجمعان عند طلوع الشمس ، وكان عدد التتار على ماقيل مائة ألف فارس أو يزيدون ، وعسكرُ المسلمين على مقدار النصف من ذلك أو أقل ، وتواقعوا من ضحوة النهار إلى آخره ، وعظم القتال بين الفريقين وثبت كل منهم .

قال الشيخ قطب الدين اليونيني : وكانت وقعة عظيمة لم يُشهد مثلها في هذه الأزمان ولا من سنين كثيرة ، وكان الملتقى فيما بين مشهد خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى الرستن ^(١) والعاصي ، واضطربت ميمنة المسلمين وحملت التتار على ميسرة المسلمين فكسروها ، وانهزم من كان فيها ، وكذلك انكسر جناح القلب الأيسر ، وثبت السلطان المنصور قلاوون ، رحمه الله تعالى ، في جمع قليل بالقلب ثابتا عظيما ، ووصل جماعة كثيرة من التتار خلف المنكسرين من المسلمين إلى بحيرة حمص ، وأحرق جماعة من التتار بحمص وهي مغلقة الأبواب ، وبذلوا نفوسهم وسيوفهم فيمن وجدوه من العوام والسُّوقَة والغلمان والرجالة المجاهدين بظاهرها ، فقتلوا منهم جماعة كثيرة ، وأشرف الإسلام على خطة صعبة ، ثم إن أعيان الأمراء ومشاهيرهم وشجعانهم مثل سُنْقَر الأشقر ، وبدر الدين بَيْسَرِي ، وعلم الدين سَنْجَر الدُّوَيْدَارِي ، وعلاء الدين طَبْرَسُ الزوزيري ، وبدر الدين بيليك ، وسيف الدين أَيْمَش السعدي ، وحسام الدين لاجين المنصوري ، والأمير حسام الدين طَرْنَاطِي ، وأمثالهم لما رأوا ثبات السلطان ردُّوا على التتار وحملوا عليهم حملات حتى كسروهم كسرة عظيمة ، وجُرِحَ مَنكُوتَمَرُ مقدَّم التتار .

(١) الرستن قرية بين حمص وحماه تشرف على نهر العاصي ..

وجاءهم الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا في عَرَبِه عَرَضًا ،
فتمت هزيمتهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة تُجَاوِز الوصف ، واتفق أن
ميسرة المسلمين كانت قد انكسرت كما ذكرنا ، والميمنة ساقَت على
العدو ولم يبق مع السلطان إلا النفر اليسير ، والأمير حسام الدين
طرنطاي قَدَّامَه بالسناجق^(١) ، فعادت الميمنة الذين كسروا ميسرة
المسلمين في خلق عظيم ومروا به ، وهو في ذلك النفر تحت السناجق
(يعني السلطان المنصور قلاوون) والكوسات تُضْرَب ^(٢) .

قال : ولقد مرت به في ذلك الوقت وماحوله من المقاتلة ألف إلا
دون ذلك ، فلما مروا به (يعني ميمنة التتار التي كانت كَسَرَت
ميسرة المسلمين) ثبت لهم ثباتًا عظيمًا ، ثم ساق عليهم بنفسه
فانهزموا أمامه لا يلوون على شيء ، وكان ذلك تمام النصر ، وكان
انهزامهم عن آخرهم قبل الغروب ، وافترقوا فرقتين : فرقة أخذتُ
جهة سَلْمِيَّةَ والبرِّيَّةَ ، وفرقة أخذت جهة حلب والفرات .

قال : ولما انقضى الحرب في ذلك النهار وعاد السلطان إلى
منزلته ، وأصبح بكرة يوم الجمعة سادس عشر رجب جهز السلطان
وراءهم جماعة كثيرة من العسكر والعربان ، ومقدمهم الأمير بدر الدين
بيليك الأيدْمُرِي .

قال : وكُتِبَت البشائر بهذا النصر العظيم إلى سائر البلاد وحصل
للناس السرور الذي لا مزيد عليه ، وعُمِلَت القلاع وزُيِّنَت المدن ، أما

(١) وتنطق السناجق أيضا وهي كلمة تركية معناها الآلوية .

(٢) هي الطبول الكبار وتستعمل في الحرب .

أهل دمشق فإنه كان ورد عليهم الخبر أولاً بكسرة المسلمين، ووصل إليهم جماعة ممن انهزم ، فلما بلغهم النصر كان سرورهم أضعاف سرور غيرهم ، وكان أهل البلاد الشامية من يوم خرج السلطان من عندهم إلى ملتقى التتار وهم يدعون الله تعالى في كل يوم ويستهلون إليه، وخرج أهل البلاد بالنساء والأطفال إلى الصحاري والجوامع والمساجد، وأكثروا من الابتهاال إلى الله عز وجل في تلك الأيام لا يفترون عن ذلك ، حتي ورد عليهم النصر العظيم ولله الحمد وطابت نفوس الناس ، ورد من كان نزع عن بلاده وأوطانه، واطمأن كل أحد وتضاعف شكر الناس لذلك .

قال : وقُتل في هذه الواقعة من التتار ما لا يحصى كثرة، وكان من استشهد من عسكر المسلمين دون المائتين على ما قيل (١) .

وهكذا عشنا مع أحداث هذه المعركة الكبيرة التي خطط لها التتار وجمعوا لها الجموع الكثيرة ليقضوا بها على وجود المسلمين ودولتهم القوية في مصر والشام ، ولكن ظنونهم خابت، وأحلامهم تبددت أمام ثبات شجعان المسلمين .

لقد تعود التتار على الهجوم الصاعق في بداية المعارك الذي يعقبه انهزام كثير من المسلمين وفرارهم ، لكنهم وجدوا منهم في معركة عين جالوت وماتلاها غير ماتعودوا منهم ، إلا أنهم في هذه المعركة قد اعتدوا بكثرة جمعهم ، وهم يعلمون أن المسلمين لا يستطيعون أن يجمعوا مثلهم فأقدموا على قتالهم ، غير أن الفارق في العدد عوضه

(١) النجوم الزاهرة ٣٠١/٧ - ٣٠٥ .

شجاعة الشجعان بعد الأمل الكبير في نصر الله تعالى والتوكل عليه .
وفي عرض مقطع من هذه المعركة يتبين لنا أهمية الثبات والصبر
في النصر ، وذلك فيما فعلته ميمنة التتار حيث هجموا على ميسرة
المسلمين وهم ألف فانهزموا ، بينما لما هجم هؤلاء التتار على السلطان
قلاوون ثبت لهم وصبر وهو في ألف أو أقل حتى هزمهم وفرقهم .
وأخيراً فإن لما قام به المسلمون من دعاء الله تعالى والتضرع إليه
على النحو المذكور أثراً معلوماً في تنزل نصر الله تعالى فإنه جل وعلا
مع عباده المؤمنين بنصره وتأييده إذا لجئوا إليه بإخلاص وصدق .

- دخول التتار في الإسلام -

إن من عجائب التاريخ أن تلك الأمة الهمجية تدخل في الإسلام حيث أسلم بركة خان أحد زعماء التتار وأسلم كثير من قومه، وبلغ من إخلاصه أنه قام بحروب كبيرة ضد ابن عمه هولاكو خان زعيم التتار الذي قضى على دولة الإسلام وقتل مئات الألوف من المسلمين، يقول الحافظ ابن كثير عن بركة خان: السلطان بركة خان بن تولى بن جنكيزخان، وهو ابن عم هولاكو، وقد أسلم بركة خان هذا، وكان يحب العلماء والصالحين، ومن أكبر حسناته كسره لهولاكو وتفريق جنوده، وكان ينصح الملك الظاهر ويعظمه ويكرم رسله إليه، ويطلق لهم شيئاً كثيراً، وقد قام بالملك بعده بعض أهل بيته وهو منكوتمر بن طغان بن بابوين بن تولى بن جنكيزخان، وكان على طريقته ومنواله والله الحمد (١).

والى بركة خان هذا يرجع الفضل بعد الله تعالى في دحر هولاكو وصدّه عن إكمال هجومه على بلاد الإسلام .

بل إنه قد دخل في الإسلام أحد بناء هولاكو وهو أحمد وقد أصبح سلطاناً على التتار بعد أخيه أبغا بن هولاكو، وذلك في عام واحد وثمانين وستمائة ، ذكر ذلك المؤرخ ابن تغري بردي وذكر أنه مسلم حسن الإسلام، وعمره يومئذ مقدار ثلاثين سنة، وأنه وصلت أوامره إلى بغداد تتضمن إظهار شعائر الإسلام وإقامة مناره، وأنه أعلى الدين، وبنى الجوامع والمساجد والأوقاف ورتب القضاة، وأنه انقاد

(١) البداية والنهاية ٢٤٩/١٣ .

إلى الأحكام الشرعية، وأنه ألزم أهل الذمة بلبس الغيار^(١) وضرب عليهم الجزية^(٢).

ثم أظهر الإسلام ملك التتار قازان بن أرغون بن أباقا بن هولاكو، وسمى نفسه بغد الإسلام محمودا، ولكن كانت أعماله مع المسلمين تتنافى مع الإسلام.

وإن في دخول هذه الأمة في الإسلام دليلا على عظمة الإسلام، وعلى مقدار اعتزاز المسلمين بإسلامهم، فإن المعروف في تاريخ الأمم- في حال اكتساح أمة لأمة أخرى في الحروب - أن المغلوب يقلد الغالب، فيتأثر بسياسته وأخلاقه وأفكاره الدينية، فيكون الغزو الفكري تابعا للغزو العسكري، لكن الذي حصل للأمة الإسلامية آنذاك كان بضد ذلك حيث كان المسلمون يحتقرون التتار ويحكمون عليهم بالانحطاط الفكري والخلقي، بينما أدرك التتار عظمة المسلمين في المجال الفكري والأخلاقي، والاجتماعي والسياسي والاقتصادي... ثم لما حللوا ذلك وجدوا أن سر تلك العظمة يكمن في الدين الإسلامي العظيم الذي يحكم جميع تصرفات المسلم وسلوكه في هذه الحياة... إنهم لم يروا دين الإسلام محصورا في شعائر تعبدية، ثم ينطلق المسلمون بعد ذلك في حياتهم على مقتضى ما علمه عليهم أفكارهم وأهواؤهم، لأنهم وجدوا أن أنظمة الإسلام السياسية والأخلاقية والاقتصادية والاجتماعية تفوق مستوى تفكير الإنسان،

(١) يعني اللباس الذي يتميزون به كالزئار ونحوه.

(٢) النجوم الزاهرة ٣١٠ / ٧.

ولا تتغير بتغير البلاد والزمان ، فأدركوا أن وراء هذا التفكير الموحد الذي شمل أكثر بلاد العالم قوة عظمى ومبادئ عليا يخضع لها جميع المسلمين ، فقادهم ذلك إلى تعظيم الإسلام والدخول فيه .

لقد كان دخول زعماء التتار في الإسلام يعني توقف الحرب بينهم وبين دولة الإسلام القائمة في مصر والشام ، خصوصا وأن الخلافة الإسلامية قد قامت في هذه الدولة بعد أن بايع السلطان الظاهر بيبرس المستنصر بالله أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر العباسي وذلك في سنة تسع وخمسين وستمائة ، فصار الاعتداء على هذه الدولة يعني الخروج على الخلافة .

– مواقف السلطان محمد بن قلاوون (١) –

ذكر المؤرخ يوسف بن تغري بردي أن قازان ملك التتار قد زحف على بلاد الشام بجيش كبير وذلك في عام تسعة وتسعين وستمائة، وأن السلطان محمد بن قلاوون قد خرج من مصر إلى الشام ووصل إلى دمشق ثم زحف إلى حمص وانضم جيش الشام إلى جيش مصر، والتقوا مع التتار قرب مدينة سلمية يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر ربيع الأول، وحملت ميسرة المسلمين على التتار فكسرتهم أقبح كسرة، وقتلوا منهم نحو خمسة آلاف أو أكثر ولم يقتل من المسلمين إلا اليسير، ثم حمل قلب المسلمين أيضاً حملة هائلة وصدموها العدو أعظم صدمة، وثبت كل من الفريقين ثباتاً عظيماً، ثم حصل تخاذل في عسكر الإسلام بعضهم في بعض، بلاء من الله تعالى، فانهزمت ميمنتهم بعد أن كان لاح لهم النصر، فلاقوه إلا بالله، ولما انهزمت الميمنة انهزم أيضاً من كانوا وراء القلب من غير قتال، وألقى الله الهزيمة عليهم فانهزم جميع عساكر الإسلام بعد النصر، وانسحب السلطان في طائفة يسيرة من أمرائه ومُدبّرِي مملكته، وترك أفراد الجيش العتاد والسلاح والمؤن وحاولوا النجاة بأنفسهم.

ولقد أصاب أهل الشام رعبٌ عظيم حينما علموا بهزيمة جيش

(١) هو السلطان الناصر محمد بن قلاوون التركي، وهو أشهر سلاطين المماليك وقد تولى السلطنة ثلاث مرات : الأولى ما بين عامي ثلاثة وتسعين وأربعة وتسعين وستمائة، والثانية ما بين عامي ثمانية وتسعين وستمائة وثمانية وسبعمائة، والثالثة استقر بالسلطنة ما بين عامي تسعة وسبعمائة وواحد وأربعين وسبعمائة.

السلطان ، ولكن خفف من رعبهم حينما علموا أن قازان مسلم وأن غالب جيشه من المسلمين ، وأنهم لم يتبعوا المنهزمين (١) .

أما سبب انهزام المسلمين بعدما لاح لهم النصر فقد ذكره السلطان محمد بن قلاوون في خطابه الذي بعثه لقازان ملك التتار جوابا على خطاب قازان الذي يذكر فيه إسلامه وإسلام قومه وأن السبب في غزوه بلاده هو اعتداء بعض رعية السلطان على بعض رعية ملك التتار ، وقد أنكر عليه السلطان ما يحصل من التتار من الإفساد في الأرض مع كونهم يظهرون الإسلام ، وأبان له بأن سبب انهزام المسلمين من جيشه هو معرفتهم بأن ملك التتار مسلم وأن غالبية جيشه قد أظهروا الإسلام فأصابهم عند ذلك شيء من التردد في جواز قتالهم (٢) .

ولقد جدَّ المسلمون بعد ذلك من جيش دولة الخلافة في قتالهم حينما بان لهم إفسادهم وأفتاهم العلماء بأنهم يشبهون الخوارج كما سيأتي .

وهذه المعركة وإن كانت نتيجتها لصالح التتار فإن فيها مواقف تشكر لجيش الشام ومصر وخاصة السلطان محمد بن قلاوون الذي كان آنذاك لم يبلغ الخامسة عشرة من العمر ولكن كان في دولته عدد من الأمراء الشجعان وكان لهم دور جيد في ثبات الجيش أول المعركة .
مواقف لشيخ الإسلام ابن تيمية :

وفي أثناء ذلك جرى موقف كبير لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه

(١) النجوم الزاهرة ٨ / ١٢٠ - ١٢٢ .

(٢) النجوم الزاهرة ٨ / ١٤٢ - ١٤٦ .

الله تعالى ، وذلك حينما خرج من دمشق هو وعدد من العلماء والأعيان لتلقي قازان وأخذ الأمان منه لأهل دمشق، وقد ذكر ذلك الحافظ ابن كثير ، وذكر عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن عمر البالسي حكاية ماجرى من ذلك ، فقال : وكان يوم قازان في جملة من كان مع الشيخ ابن تيمية لما تكلم مع قازان، فحكى عن كلام شيخ الإسلام تقي الدين لقازان وشجاعته وجرأته عليه، وأنه قال لترجمانه: قل للقان : أنت تزعم أنك مسلم ومعك مؤذنون وقاض وإمام وشيخ على مابلغنا ، فغزوتنا وبلغت بلادنا على ماذا ؟

قال : وجرت له مع قازان وقطلو شاه وبولاي أمور ونُوبٌ قام فيها ابن تيمية كلها لله وقال الحق ولم يخش إلا الله عز وجل .

قال : وقرب إلى الجماعة طعاما فاكلوا منه إلا ابن تيمية فقليل له : ألا تأكل ؟ فقال : كيف أكل من طعامكم وكله مما نهبتم من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس ؟

قال : ثم إن قازان طلب منه الدعاء فقال في دعائه : « اللهم إن كان هذا عبدك محمود إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا وليكون الدين كله لك فانصره وأيده وملكه البلاد والعباد ، وإن كان إنما قام رياء وسمعة وطلباً للدنيا ولتكون كلمته هي العليا وليُذل الإسلام وأهله فاخذه وزلزه ودمره واقطع دابره » ، قال : وقازان يؤمن على دعائه ويرفع يديه .

قال : فجعلنا نجتمع ثيابنا خوفا من أن تتلوث بدمه إذا أمر بقتله .
قال : فلما خرجنا من عنده قال له القاضي نجم الدين بن صُصري

وغيره : كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك ، والله لانصحبك من هنا ، فقال : وأنا والله لا أصحبكم .

قال : فانطلقوا عصابة وتأخر هو في خاصة نفسه ومعه جماعة من أصحابه ، فتسامعت به الخواقين والأمرء من أصحاب قازان فأتوه يتبركون بدعائه ، وهو سائر إلى دمشق وينظرون إليه ، قال : والله ماوصل إلى دمشق إلا في نحو ثلاثمائة فارس في ركابه ، وكنت أنا من جملة من كان معه ، وأما أولئك الذين أبوا أن يصحبوه فخرج عليهم جماعة من التتر فشلحوهم عن آخرهم ، هذا الكلام أو نحوه ، وقد سمعت هذه الحكاية من جماعة غيره (١) .

ففي هذا الخبر عدة مواقف وعبر :

أولا : في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية أمام ملك التتار الجبار ، ذلك الكلام القوي الرصين الذي أنكر عليه فيه قيامه بظلم المسلمين ، وذلك في قتالهم ونهب أموالهم مع أنه مسلم ويظهر شعائر الإسلام .

ثانياً : في دعائه القوي الواضح الذي دعا فيه لملك التتار إن كان يريد عزة الإسلام والمسلمين ، ودعا عليه بتلك الدعوات القوية الساحقة إن كان يريد إذلال الإسلام والمسلمين .

ثالثاً : في ورعه الدقيق ، حيث امتنع عن الأكل من طعام التتار لكونه مما نهى به من أموال المسلمين .

وفي هذه المواقف كان رحمه الله تعالى في غاية القوة والجرأة في قول الحق أمام سلطان جبار قد اشتهر بالبطش والعنف .

(١) البداية والنهاية ٨/١٤ ، ٩١ - ٩٢ .

ولقد كان الإقدام على الإنكار على ذلك السلطان الجبار يعتبر إقداماً على الشهادة في سبيل الله تعالى في أغلب الاحتمالات ، ولا يمكن أن يقدم على ذلك إلا من قد حملوا أرواحهم على أكفهم وأصبح هدفهم الأعلى هو إظهار عزة الإسلام وإنصاف المظلومين مهما تكن النتائج في ذلك ثم إنه لا يقوى على الوقوف مثل ذلك الموقف إلا الرجل الذي امتلأ قلبه إيماناً بالله عز وجل وكان قوي الاستحضار لعظمته وجلاله ، لأن فكره - والحال هذه - لا يتصور قوة ولا عظمة في الوجود إلا قوة الله جل وعلا وعظمته ، بينما تتلاشى من نظريه كل مظاهر القوة والعظمة التي يظهر بها سلاطين البشر .

ولقد كان هذا هو الدافع لشيخ الإسلام ابن تيمية ليقف ذلك الموقف العظيم ، ولقد عبر عن ذلك بقوله لمن سألته عن موقفه ذلك : ذكرت عظمة الله تعالى فأصبح السلطان أمامي كالقط .

رابعاً : في هذا الخبر عبرة عظيمة ، وذلك في موقف السلطان قازان من شيخ الإسلام ابن تيمية حيث لان له حتى أصبح بن يديه كالحمل النوديع ، وتلاشى عنه جبروته وتعاضله وأبهة سلطانه ، وأصبح من تأثره بكلام ابن تيمية إلى حد أنه طلب الدعاء له وكان يؤمن على دعائه حتى حينما دعا عليه إذا هو انحرف عن الطريق المستقيم ، ولا شك أن ذلك من تسخير الله تعالى ، حيث ألان قلب ذلك السلطان لابن تيمية ، فإن القلوب كلها بيد الله عز وجل يصرفها كيف يشاء .

خامساً : وفيه عبرة فيما حدث لابن تيمية في رجوعه إلى

دمشق، وما حدث لمعارضيه الذين أبوا أن يصاحبوه لظنهم أن سلطان التتار سيرسل إلى ابن تيمية من ينتقم منه في الطريق، فكان الأمر على خلاف ماتوقعوا ، حيث رجع ابن تيمية إلى دمشق في عزة وحماية قوية من فرسان التتار الذين أعجبوا به وبالغوا في احترامه، بينما رجع أولئك الذين فارقوه بشرّ حال، وذلك كله مع ماسبق يوضح لنا معية الله تعالى لأوليائه بالنصر والتأييد جزاء لهم على توكلهم عليه وتعظيمهم إياه واستمدادهم النصر منه ، وخذلانه لمن غاب عن باله تصور عظمتة، وهيمن على قلبه تصور عظمة المخلوقين والرهبة منهم .

موقف جهادي لنائب القلعة :

ولما استولى التتار على بلاد الشام عاثوا في الأرض فساداً هم وأتباعهم من النصارى فقتلوا في دمشق وماحولها عدداً كبيراً من المسلمين وسبوا كثيراً من النساء والأطفال ونهبوا كثيراً من الأموال، وولوا على نيابة الشام سيف الدين قبجق المنصوري الذي كان لجأ إليهم قبل ذلك لخلاف بينه وبين سلطان مصر والشام ، قال الحافظ ابن كثير: وأرسل قبجق إلى نائب القلعة [يعني أرجواش المنصوري] ليسلمها إلى التتار فامتنع أرجواش من ذلك أشد الامتناع فجمع له قبجق أعيان البلد فكلّموه أيضاً فلم يجبههم إلى ذلك، وصمم على ترك تسليمها إليهم وبها عين تطرف، فإن الشيخ تقي الدين ابن تيمية أرسل إلى نائب القلعة يقول له ذلك : لو لم يبق فيها إلا حجر واحد فلا تسلمهم ذلك إن استطعت ، وكان في ذلك مصلحة عظيمة لأهل الشام فإن الله حفظ لهم هذا الحصن والمعقل الذي جعله الله حرزا

لأهل الشام التي لاتزال دار إيمان وسنة حتى ينزل بها عيسى بن مريم عليه السلام (١) .

فهذا موقف يذكر لنائب القلعة أرجواش حيث صمم على عدم تسليم القلعة لنائب التتار ، مع أن الشام كله قد سقط بأيدي التتار ، فما نسبة هذه القلعة إلى بلاد الشام ؟! ومع ذلك ومع احتمال قيام التتار بتدمير تلك القلعة فقد ثبت فيها نائبها ومن معه من الجنود وأبى أن يسلمها .

ولقد كان لشيخ الإسلام ابن تيمية تأثير واضح وقوي على نائب القلعة ، حيث ائتمر بأمره القوي الصارم الذي يلزمه بالثبات حتى هدم آخر حجر في تلك القلعة، وهذا الموقف من شيخ الإسلام يدل على روح جهادية عالية تتسم بالقوة والثبات والتصميم على الدفاع عن الإسلام والمسلمين حتى آخر قطرة من دمه ودم أتباعه، هذا مع قلة مؤيديه الذين يأترون بأمره فكيف لو كان معه جيش كبير ؟!

ولقد كان تصميم أرجواش نائب القلعة ثابتاً ، فلقد كلّمه - إضافة إلى أمير دمشق - الأمير حسام الدين لاجين والأمير بكتمر وغيرهما في تسليم قلعة دمشق إلى نائب التتار وقالوا له : دَمُ المسلمين في عنقك إن لم تسلمها ، فأجابهم : دَمُ المسلمين في أعناقكم ، أنتم الذين خرجتم من دمشق وتوجهتم إلى قازان وحسبتم له المجيء إلى دمشق وغيرها ، ثم ويخهم ، ولم يسلم قلعة دمشق ، وتهياً للقتال والحصار واستمر على حفظ القلعة ، ثم ترادفت قُصَادُ

(١) البداية والنهاية ٩/١٤ .

غازان إلى أرجواش هذا وطال الكلام بينهم في تسليم القلعة ، فسبته الله تعالى ومنع ذلك بالكلية ، وكان هؤلاء الأمراء قد لجئوا إلى قازان فراراً من الملك محمد بن قلاوون حاكم مصر والشام (١) .

وذكر الحافظ ابن كثير بعض مافعلته عصابات التتار بأهل الشام من القتل والنهب ثم قال : وخرج الشيخ ابن تيمية في جماعة من أصحابه يوم الخميس العشرين من ربيع الآخر - يعني من عام تسعة وتسعين وستمائة - إلى ملك التتر ، وعاد بعد يومين ولم يتفق اجتماعه به ، حجه الوزير سعد الدين والرشيد مشير الدولة والتزما له بقضاء الشغل ، وذكر له أن التتر لم يحصل لكثير منهم شيء إلى الآن ولا بد لهم من شيء (٢) .

وهذه هي المحاولة الثانية من شيخ الإسلام ابن تيمية في مقابلة ملك التتار ، مما يدل على تفانيه في إعزاز الإسلام وحماية المسلمين ، وتضحيته بنفسه ووقته من أجل ذلك ، ولكن تبين من كلام وزراء قازان بأن التتار لن يرجعوا إلا وقد أخذوا من الأموال مايكفيهم ، وقد حصل لهم نائبهم قبجق وعماله كثيراً من أموال الناس بالقوة (٣) .

وذكر الحافظ ابن كثير دخول التتار إلى دمشق ، واستيلاءهم على كثير من أموال الناس ، ثم قال : وشرع التتر في عمل مجانيق بالجامع ليرموا بها القلعة من صحن الجامع ، وغلقت أبوابه ، ونزل التتار في مشاهدته يحرسون أخشاب المجانيق وينهبون ماحوله من الأسواق .

(١) النجوم الزاهرة ٨ / ١٢٥ .

(٢) البداية والنهاية ١٤ / ١٠ .

(٣) البداية والنهاية ١٤ / ١٠ ، النجوم الزاهرة ٨ / ١٢٦ .

قال : وفي ذلك اليوم - يعني يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الأولى من عام تسعة وتسعين وستمائة - توجه السلطان قازان ، وترك نوابه بالشام في ستين ألف مقاتل نحو بلاد العراق ، وجاء كتابه : « إنا تركنا نوابنا بالشام في ستين ألف مقاتل ، وفي عزمنا العود إليها في زمن الخريف والدخول إلى الديار المصرية وفتحها » وقد أعجزتهم القلعة أن يصلوا إلى حجر منها وخرج سيف الدين قبجق لتوديع قطلوشاه نائب قازان ، وسار وراءه ، وضربت البشائر بالقلعة فرحا لرحيلهم ولم تفتح القلعة ، وأرسل أرجواش ثاني يوم من خروج قبجق القلعية إلى الجامع فكسروا أخشاب المنجنقات المنصوبة به ، وعادوا إلى القلعة سالمين (١).

وهكذا كان أصحاب القلعة هم الوحيدون الذين صمدوا في وجه التار وأعجزوهم عن فتح القلعة ، وإن المتأمل ليعجب من فتحهم الشام كله وعجزهم عن فتح قلعة ، مما يدل على أن سلامة هذه القلعة منهم مع كثرتهم وكثرة ما يملكونه من الأسلحة ووسائل التدمير دليل على نصر الله تعالى أوليائه المؤمنين وخذلان أعدائهم .

وقال الحافظ ابن كثير في خبر هذه القلعة : وخرج طائفة من القلعة فقتلوا طائفة من التار ونهبوهم ، وقتل جماعة من المسلمين في غبون ذلك ، وأخذوا طائفة ممن كان يلوذ بالتتر ، ورسم قبجق لخطيب البلد وجماعة من الأعيان أن يدخلوا القلعة فيتكلموا مع نائبيها في المصالحة ، فدخلوا عليه يوم الإثنين ثاني عشر جمادى الآخرة ، فكلموه

(١) البداية والنهاية ١٤ / ١٠ .

وبالغوا معه ، فلم يجب إلى ذلك ، وقد أجاد وأحسن وأرجل في ذلك بيض الله وجهه (١) .

فيا ترى لو كان قادة بلاد الشام وجنودها من أمثال هذا القائد القوي الحازم وجنوده المطيعين المنتظمين هل يكون للتار وغيرهم من أعداء الإسلام موطن قدم ؟!

لقد كان أمل أرجواش كبيراً في أن يزول التار وأن تعود بلاد مصر والشام دولة واحدة ، وهذا ما تحقق بعد ذلك حيث جلا التار وعادت دولة الإسلام القوية ، وكانت قلعة دمشق رمز الثبات الذي حطم كبرياء التار ومنعهم من دعوى الاستيلاء على الشام كله .
مواقف أخرى لابن تيمية وغيره :

ولما رحل قازان إلى العراق ببعض جيشه وترك جيشاً في الشام بقيادة بولاي كان لشيخ الإسلام ابن تيمية موقف مع بولاي ذكره الحافظ ابن كثير فقد ذكر أنه في اليوم الثامن من شهر رجب من العام التاسع والتسعين وستمائة خرج الشيخ تقي الدين ابن تيمية إلى مخيم بولاي فاجتمع به في فكاك من كان معه من أسارى المسلمين فاستنقذ كثيراً منهم من أيديهم وأقام عنده ثم عاد (٢) .

فهذا مثل من بذل الإحسان والسعي في إنقاذ المسلمين من الضرر ، حيث غامر شيخ الإسلام ابن تيمية بنفسه وذهب إلى والي التتار وسعى في إنقاذ أسرى المسلمين ، وهذا يعتبر من الأعمال

(١) البداية والنهاية ١١/١٤ .

(٢) البداية والنهاية ١١/١٤ - ١٢ .

الجهادية العالية، من حيث اشتماله على المشقة الكبيرة في مخاطبة الجبارين واحتمال التعرض للشهادة في سبيل ذلك .

هذا وقد ذكر الحافظ ابن كثير رحيل بقية جيش التتار خوفاً من جيش مصر القادم ، وفي ذلك يقول : ونودي بالجامع بعد الصلاة ثالث رجب من جهة نائب القلعة بأن العساكر المصرية قادمة إلى الشام، وفي عشية يوم السبت رحل بولاي وأصحابه من التتار وانشَمروا عن دمشق، وقد أراح الله منهم . . إلى أن قال : ونادى أرجواش في البلد : احفظوا الأسوار وأخرجوا ما كان عندكم من الأسلحة، ولا تهملوا الأسوار والأبواب ، ولا يبيتن أحد إلا على السور، ومن بات في داره شتق، فاجتمع الناس على الأسوار لحفظ البلاد ، وكان الشيخ تقي الدين ابن تيمية يدور كل ليلة على الأسوار يحرض الناس على الصبر والقتال ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط (١) .

وهذا موقف حزم وعزم من شيخ الإسلام ابن تيمية ونائب القلعة أرجواش ، حيث حوّلوا المسلمين كلهم في البلد إلى مجاهدين، وهكذا ينبغي لكل مسلم أن يكون مجاهدا إذا احتاجت إليه الأمة، وأن يكون كل أفراد الأمة جنوداً احتياطيين ينفرون إلى الجهاد عند اللزوم .

وذكر الحافظ ابن كثير أنه في مستهل صفر من عام سبعمئة وردت الأخبار بقصد التتار بلاد الشام وأنهم عازمون على دخول مصر فانزعج الناس لذلك وازدادوا ضعفاً على ضعفهم . . إلى أن قال : وجلس الشيخ تقي الدين ابن تيمية في ثاني صفر بمجلس في الجامع وحرّض الناس على القتال، وساق لهم الآيات والأحاديث الواردة في

(١) البداية والنهاية ١٢/١٤ .

ذلك، ونهى عن الإسراع في الفرار ، ورغب في إنفاق الأموال في الذب عن المسلمين وبلادهم وأموالهم، وأن ما ينفق في أجره الهرب إذا أنفق في سبيل الله كان خيرا، وأوجب جهاد التتار حتما في هذه الكرة، وتابع المجالس في ذلك .

كما ذكر أن الشيخ زين الدين الفارقي وإبراهيم الرقي وابن قوام وشرف الدين ابن تيمية وابن خبارة خرجوا إلى نائب السلطة الأفرم - وكان مرابطا في المرج - فقتلوا عزمه على ملاقاته العدو، واجتمعوا بمهنا أمير العرب فحرضوه على قتال العدو فأجابهم بالسمع والطاعة، وقويت نياتهم على ذلك (١).

وهذا موقف يذكر لهؤلاء العلماء فقد قاموا بمهمتهم وأدوا الأمانة التي جعلها الله تعالى في رقابهم، فالعلماء هم المسؤولون عن تبليغ الإسلام ، وهم أول المسؤولين عن إصلاح المجتمع الإسلامي وإعدادة للجهاد وحماية دار الإسلام .

وقال الحافظ ابن كثير في بيان ما جرى بعد ذلك وما حصل من مواقف : واستهل جمادى الأولى - يعني من عام سبعمائة - والناس على خطة صعبة من الخوف، وتأخر السلطان واقترب العدو، وخرج الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله تعالى في مستهل هذا الشهر، وكان يوم السبت إلى نائب الشام في المرج (٢) فثبتهم وقوى جأشهم وطيب قلوبهم ووعدهم النصر والظفر على الأعداء ، وتلا قوله تعالى

(١) البداية والنهاية ١٥/١٤ - ١٧ .

(٢) يعني بذلك الأفرم نائب السلطان في الشام وكان مرابطا مع الجيش في المرج .

﴿ذَلِكَ وَمِنْ عَاقِبِ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج : ٦٠] ويات ويات عند العسكر ليلة الأحد ، ثم عاد إلى دمشق ، وقد سأله النائب والأمراء أن يركب على البريد إلى مصر يستحث السلطان على المجيء ، فساق وراء السلطان ، وكان السلطان قد وصل إلى الساحل فلم يدركه إلا وقد دخل القاهرة ، وتفارط الحال ، ولكنه استحثهم على تجهيز العساكر إلى الشام إن كان لهم به حاجة ، وقال لهم : إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطانا يحوطه ويحميه ويستغله في زمن الأمن ، ولم يزل بهم حتى جردت العساكر إلى الشام ، ثم قال لهم : لو قُدِّر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه واستنصر أهله وجب عليكم النصر ، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه وهم رعاياكم وأنتم مسؤولون عنهم ، وقوى جأشهم وضمن لهم النصر هذه الكرة ، فخرجوا إلى الشام ، فلما تواصلت العساكر إلى الشام فرح الناس فرحا شديداً بعد أن كانوا ينسوا من أنفسهم وأهليهم وأموالهم .

قال : ورجع الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الديار المصرية في السابع والعشرين من جمادى الأولى على البريد ، وأقام بقلعة مصر ثمانية أيام يحثهم على الجهاد والخروج إلى العدو ، وقد اجتمع بالسلطان - يعني الناصر محمد بن قلاوون - والوزير وأعيان الدولة فأجابوه إلى الخروج (١) .

وهذا موقف جهادي كبير لشيخ الإسلام ابن تيمية حيث أثار

(١) البداية والنهاية ١٤/١٦ - ١٧ .

بتوجيهاته السديدة القوية على سلطان مصر والشام ووزرائه حتى حملهم على تجهيز الجيش لملاقاة جيش التتار .

ولقد ضرب ابن تيمية بهذا مثلاً عالياً للعالم الرباني المجاهد الذي طبق كل ماتعلمه من الإسلام حتى ما هو شاق على النفوس كالجهاد وإنكار المنكر .

وهكذا أظهر ابن تيمية صورة العالم الديني بأنه ذلك العالم الذي يبصر المسلمين بجميع واجباتهم ، ويسارع في نجاتهم وإنقاذهم من الكوارث والنكبات . . . العالم الذي يبرز عند الفزع ويتوارى عند الطمع ، وليس ذلك العالم الذي يقبع في زاوية من زوايا المسجد أو المدرسة الدينية يدرس العلم ولا يهمه أمر المسلمين . . . وليس العالم الذي يتهالك على الدنيا وينافس عليها أهلها .

مقارنة بين الأحزاب والتتار :

عقد شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية مقارنة جيدة بين الأحزاب الذين تحزبوا ضد رسول الله ﷺ والمسلمين في المدينة النبوية وموقف الرسول ﷺ والصحابة منهم وبين التتار الذين تحزبوا مع الأعداء الآخرين ضد المسلمين في أواخر القرن السابع ، وفي ذلك يقول رحمه الله تعالى :

ثم إنه تعالى قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٩] .

ثم ذكر قصة الأحزاب باختصار إلى أن قال في قصة التتار : وفي

هذه الحادثة تحزب هذا العدو من مغل وغيرهم من أنواع الترك ، ومن فرس ومستعربة ، ونحوهم من أجناس المرتدة ، ومن نصارى الأرمن وغيرهم . ونزل هذا العدو بجانب ديار المسلمين ، وهو بين الإقدام والإحجام ، مع قلة من يازائهم من المسلمين . ومقصودهم الاستيلاء على الدار ، واصطلام أهلها . كما نزل أولئك بنواحي المدينة بازاء المسلمين .

ودام الحصار على المسلمين عام الخندق - على ما قيل - بضعا وعشرين ليلة . وقيل : عشرين ليلة .

وهذا العدو عبر الفرات سبع عشر ربيع الآخر ، وكان أول انصرافه راجعا عن حلب لما رجع مقدمهم الكبير قازان بمن معه : يوم الاثنين حادي أو ثاني عشر جمادى الأولى ، يوم دخل العسكر عسكر المسلمين إلى مصر المخروسة . واجتمع بهم الداعي ، وخاطبهم في هذه القضية . وكان الله سبحانه وتعالى لما ألقى في قلوب المؤمنين ما ألقى من الاهتمام والعزم ألقى الله في قلوب عدوهم الروع والانصراف .

وكان عام الخندق برد شديد ، وريح شديدة منكرة ، بها صرف الله الأحزاب عن المدينة ، كما قال تعالى : ﴿ فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ﴾ .

وهكذا هذا العام أكثر الله فيه الثلج والمطر والبرد . على خلاف أكثر العادات . حتى كره أكثر الناس ذلك . وكنا نقول لهم : لا تكرهوا ذلك فإن لله فيه حكمة ورحمة . وكان ذلك من أعظم

الأسباب التي صرف الله به العدو : فإنه كثر عليهم الثلج والمطر والبرد، حتى هلك من خيلهم ماشاء الله . وهلك أيضا منهم من شاء الله . وظهر فيهم وفي بقية خيلهم من الضعف والعجز بسبب البرد والجوع مارأوا أنهم لا طاقة لهم معه بقتال . حتى بلغني عن بعض كبار المقدمين في أرض الشام أنه قال: لا يبيض الله وجوهنا : أعدونا في الثلج إلى شعره ، ونحن قعود لاناخذهم ، وحتى علموا أنهم كانوا صيدا للمسلمين، لو يصطادونهم ، لكن في تأخير الله اصطيادهم حكمة عظيمة .

وقال الله في شأن الأحزاب: ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۚ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١١، ١٢] .

وهكذا هذا العام . جاء العدو من ناحيتي علو الشام ، وهو شمال الفرات . وقبلي الفرات . فراغت الأبصار زيغا عظيما ، وبلغت القلوب الحناجر لعظم البلاء ، لاسيما لما استفاض الخبر بانصراف العسكر إلى مصر ، وتقرب العدو، وتوجهه إلى دمشق . وظن الناس بالله الظنونا . هذا يظن أنه لا يقف قدامهم أحد من جند الشام، حتى يصطلموا أهل الشام . وهذا يظن أنهم لو وقفوا لكسروهم كسرة، وأحاطوا بهم إحاطة الهالة بالقمر . وهذا يظن أن أرض الشام مابقيت تسكن، ولا بقيت تكون تحت مملكة الإسلام . وهذا يظن أنهم يأخذونها ، ثم يذهبون إلى مصر فيستولون عليها، فلا يقف قدامهم أحد، فيحدث نفسه بالفرار إلى اليمن ، ونحوها . وهذا - إذا أحسن

ظنه - قال : إنهم يملكونها العام ، كما ملكوها عام هولاكو سنة سبع وخمسين . ثم قد يخرج العسكر من مصر فيستنقذها منهم ، كما خرج ذلك العام . وهذا ظن خيارهم . وهذا يظن أن ما أخبره به أهل الآثار النبوية ، وأهل التحديث والمبشرات أمانى كاذبة ، وخرافات لاغية . وهذا قد استولى عليه الرعب والفرع ، حتى يمر الظن بفؤاده مر السحاب ، ليس له عقل يتفهم ، ولا لسان يتكلم .

وهذا قد تعارضت عنده الأمارات ، وتقابلت عنده الارادات ، لاسيما وهو لا يفرق من المبشرات بين الصادق والكاذب . ولا يميز في التحديث بين المخطئ والصائب . ولا يعرف النصوص الاثرية معرفة العلماء ، بل إما أن يكون جاهلا بها وقد سمعها سماع العبر ، ثم قد لا يتفطن لوجوه دلالتها الخفية ، ولا يهتدي لدفع ما يتخيل أنه معارض لها في بادئ الروية .

فلذلك استولت الحيرة على من كان متسما بالاهتداء ، وتراجعت به الآراء تراجم الصبيان بالحصباء ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١١] . ابتلاهم الله بهذا الابتلاء ، الذي يكفر به خطيئاتهم ، ويرفع به درجاتهم . وزلزلوا بما يحصل لهم من الرجفات ، ما استوجبوا به أعلى الدرجات . قال الله تعالى ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١٢] . وهكذا قالوا في هذه الفتنة فيما وعدهم أهل الورثة النبوية ، والخلافة الرسالية ، وحزب الله المحدثون عنه . حتى حصل لهؤلاء التآسي برسول الله ﷺ ، كما قال الله

تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

إلى أن قال : فدلّت هذه الآية - وهي قوله تعالى ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ - على أن المرض والنفاق في القلب يوجب الريب في الأنباء الصادقة التي توجب أمن الإنسان : من الخوف ، حتى يظنوا أنها كانت غروراً لهم ، كما وقع في حادثتنا هذه سواء .

ثم قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ [الأحزاب: ١٣] وكان النبي ﷺ قد عسكر بالمسلمين عند سلع ، وجعل الخندق بينه وبين العدو . فقالت طائفة منهم : لا مقام لكم هنا ، لكثرة العدو . فارجعوا إلى المدينة . وقيل : لا مقام لكم على دين محمد ، فارجعوا إلى دين الشرك . وقيل : لا مقام لكم على القتال فارجعوا إلى الاستئمان والاستجارة بهم .

وهكذا لما قدم هذا العدو كان من المنافقين من قال : مابقيت الدولة الإسلامية تقوم ، فينبغي الدخول في دولة التتار . وقال بعض الخاصة : مابقيت أرض الشام تسكن ، بل نتقل عنها ، إما إلى الحجاز واليمن ، وإما إلى مصر . وقال بعضهم : بل المصلحة الاستسلام لهؤلاء ، كما قد استسلم لهم أهل العراق ، والدخول تحت حكمهم .

فهذه المقالات الثلاث قد قيلت في هذه النازلة . كما قيلت في تلك . وهكذا قال طائفة من المنافقين ، والذين في قلوبهم مرض ، لأهل دمشق خاصة والشام عامة : لا مقام لكم هذه الأرض .

ونفي المقام بها أبغ من نفي المقام . وإن كانت قد قرئت بالضم

أيضا (١). فإن من لم يقدر أن يقوم بالمكان ، فكيف يقيم به ؟
قال الله تعالى ﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ
وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب: ١٣] .

وكان قوم من هؤلاء المذمومين يقولون - والناس مع النبي ﷺ
عند سلع داخل الخندق ، والنساء والصبيان في أطام المدينة - يارسول
الله ، إن بيوتنا عورة . أي مكشوفة ليس بينها وبين العدو حائل .

- وأصل العورة : الخالي ، الذي يحتاج إلى حفظ وستر . يقال :
أعور مجلسك إذا ذهب ستره ، أو سقط جداره . ومنه عورة العدو - .

وقال مجاهد والحسن : أي ضائعة نخشى عليها السراق . وقال
قتادة : قالوا : بيوتنا مما يلي العدو ، فلا نأمن على أهلنا ، فآذن لنا
أن نذهب إليها ، لحفظ النساء والصبيان . قال الله تعالى ﴿ وَمَا هِيَ
بِعَوْرَةٍ ﴾ لأن الله يحفظها ﴿ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ فهم يقصدون
الفرار من الجهاد ، ويحتجون بحجة العائلة .

وهكذا أصاب كثيراً من الناس في هذه الغزاة ، صاروا يفرون من
الثغر إلى المعقل والحصون ، وإلى الأماكن البعيدة كمصر ، ويقولون :
مامقصودنا إلا حفظ العيال ، وما يمكن إرسالهم مع غيرنا ، وهم
يكذبون في ذلك ، فقد كان يمكنهم جعلهم في حصن دمشق لودنا
العدو ، كما فعل المسلمون على عهد رسول الله ﷺ وقد كان يمكنهم
إرسالهم والمقام للجهاد ، فكيف بمن فر بعد إرسال عياله ؟ قال الله
تعالى ﴿ وَلَوْ دَخَلْتَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَفْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا

(١) وهي قراءة حفص ، وقد سار الشيخ في تفسير الآية على قراءة أخرى .

بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿ [الأحزاب: ١٤] فَأَخْبِرْ أَنَّهُ لَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمُ الْمَدِينَةُ مِنْ جَوَانِبِهَا ثُمَّ طُلِبَتْ مِنْهُمْ الْفِتْنَةُ - وَهِيَ الْاِفْتِتَانُ عَنِ الدِّينِ بِالْكَفْرِ ، أَوْ النِّفَاقِ - لَأَعْطَوْا الْفِتْنَةَ . وَلِجَاءِهَا مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ .

وهذه حال أقوام لو دخل عليهم هذا العدو المنافق المجرم . ثم طلب منهم موافقته على ما هو عليه من الخروج عن شريعة الإسلام - وتلك فتنة عظيمة - لكانوا معه على ذلك . كما ساعدتهم في العام الماضي أقوام بأنواع من الفتنة في الدين والدنيا ، ما بين ترك واجبات ، وفعل محرمات ، إما في حق الله ، وإما في حق العباد . كترك الصلاة ، وشرب الخمر ، وسب السلف ، وسب جنود المسلمين ، والتجسس لهم على المسلمين ، ودلالتهم على أموال المسلمين ، وحریمهم . وأخذ أموال الناس ، وتعذيبهم ، وتقوية دولتهم الملعونة ، وإرجاف قلوب المسلمين منهم ، إلى غير ذلك من أنواع الفتنة .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ [الأحزاب: ١٥] وهذه حال أقوام عاهدوا ثم نكثوا قديما وحديثا في هذه الغزوة . فإن في العام الماضي وفي هذا العام في أول الأمر كان من أصناف الناس من عاهد على أن يقاتل ولا يفر ، ثم فر منهزما لما اشتد الأمر .

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تَمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب: ١٦] فَأَخْبِرِ اللَّهَ أَنَّ الْفِرَارَ لَا يَنْفَعُ لَا مِنَ الْمَوْتِ وَلَا مِنَ الْقَتْلِ ، فَالْفِرَارُ مِنَ الْمَوْتِ كَالْفِرَارِ مِنَ الطَّاعُونَ . وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِذَا وَقَعَ بَارِضٌ وَأَنْتُمْ بِهَا

فلاتخرجوا فراراً منه » والفرار من القتل كالفرار من الجهاد، وحرف «لن» ينفي الفعل في الزمن المستقبل، والفعل نكرة والنكرة في سياق النفي تعم جميع أفرادها . فاقضى ذلك : أن الفرار من الموت أو القتل ليس فيه منفعة أبداً ، وهذا خبر الله الصادق، فمن اعتقد أن ذلك ينفعه فقد كذب الله في خبره .

والتجربة تدل على مثل ما دل عليه القرآن . فإن هؤلاء الذين فروا في هذا العام لم ينفعهم فرارهم : بل خسروا الدين والدنيا، وتفاوتوا في المصائب . والمرابطون الثابتون نفعهم ذلك في الدين والدنيا، حتى الموت الذي فروا منه كثر فيهم وقل في المقيمين، فما منع الهرب من شاء الله، والطالبون للعدو والمعاقبون له لم يمت منهم أحد ولا قتل، بل الموت قل في البلد من حين خرج الفارون ، وهكذا سنة الله قديماً وحديثاً .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ يقول : لو كان الفرار ينفعكم لم ينفعكم إلا حياة قليلة ثم تموتون ، فإن الموت لا بد منه ، وقد حكى عن بعض الحمقى أنه قال : فنحن نريد ذلك القليل ، وهذا جهل منه بمعنى الآية ، فإن الله لم يقل : إنهم يمتعون بالفرار قليلاً ، لكنه ذكر أنه لا منفعة فيه أبداً ، ثم ذكر جواباً ثانياً : أنه لو كان ينفع لم يكن فيه إلا متاع قليل ، ثم ذكر جواباً ثالثاً ، وهو أن الفار يأتيه ما قضي له من المضرة، ويأتي الثابت ما قضي له من المسرة، فقال : ﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الأحزاب : ١٧] .

إلى أن قال : وقد ذكر أهل المغازي - منهم ابن اسحق - أن النبي

ﷺ قال في الخندق : « الآن نغزوهم ، ولا يغزونا » فما غزت قريش ولا غطفان ، ولا اليهود المسلمين بعدها ، بل غزاهم المسلمون : ففتحوا خيبر ثم فتحوا مكة . كذلك - إن شاء الله - هؤلاء الأحزاب من المغل وأصناف الترك ومن الفرس ، والمستعربة ، والنصارى ، ونحوهم من أصناف الخارجين عن شريعة الإسلام : الآن نغزوهم ولا يغزونا ويتوب الله على من يشاء من المسلمين ، الذين خالط قلوبهم مرض أو نفاق ، بأن ينيبوا إلى ربهم ، ويحسن ظنهم بالإسلام ، وتقوى عزيمتهم على جهاد عدوهم . فقد أراهم الله من الآيات ما فيه عبرة لأولي الأبصار ، كما قال : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب : ٢٥] .

فإن الله صرف الأحزاب عام الخندق بما أرسل عليهم من ريح الصبا : ريح شديدة باردة ، وبما فرق به بين قلوبهم ، حتى شتت شملهم ، ولم ينالوا خيراً ، إذ كان همهم فتح المدينة والاستيلاء عليها وعلى الرسول والصحابة ، كما كان هم هذا العدو فتح الشام والاستيلاء على من بها من المسلمين ، فردهم الله بغيظهم ، حيث أصابهم من الثلج العظيم ، والبرد الشديد ، والريح العاصف ، والجوع المزعج ، ما الله به عليم .

وقد كان بعض الناس يكره تلك الثلوج والأمطار العظيمة التي وقعت في هذا العام ، حتى طلبوا الاستصحاء غير مرة . وكنا نقول لهم : هذا فيه خيرة عظيمة . وفيه لله حكمة وسر ، فلا تكرهوه . فكان من حكمته أنه فيما قيل : أصاب قازان وجنوده حتى أهلكهم ، وهو

كان فيما قيل سبب رحيلهم . وأبتلي به المسلمون ليتبين من يصبر على أمر الله وحكمه ممن يفر عن طاعته وجهاد عدوه . وكان مبدأ رحيل قازان فيمن معه من أرض الشام وأراضي حلب يوم الاثنين حادي عشر جمادى الأولى ، يوم دخلت مصر عقيب العسكر واجتمعت بالسلطان وأمراء المسلمين وألقى الله في قلوبهم من الاهتمام بالجهاد ما لقاؤه ، فلما ثبت الله قلوب المسلمين صرف العدو ، جزاء منه وبيئاً أن النية الخالصة و الهمة الصادقة ينصر الله بها وإن لم يقع الفعل ، وإن تباعدت الديار .

وذكر أن الله فرق بين قلوب هؤلاء المغل والكرج وألقى بينهم تباعضاً وتعادياً ، كما ألقى سبحانه عام الأحزاب بين قريش و غطفان ، وبين اليهود . كما ذكر ذلك أهل المغازي ، فإنه لم يتسع هذا المكان لأن نصف فيه قصة الخندق ، بل من طالعتها علم صحة ذلك ، كما ذكره أهل المغازي ، مثل عروة بن الزبير ، والزهري ، وموسى بن عقبة ، وسعيد بن يحيى الأموي ، ومحمد بن عائذ ، ومحمد بن اسحق ، والواقدي ، وغيرهم .

ثم تبقى بالشام منهم بقايا ، سار إليهم من عسكر دمشق أكثرهم ، مضافاً إلى عسكر حماة وحلب وما هنالك . وثبت المسلمون بازائهم ، وكانوا أكثر من المسلمين بكثير ، لكن في ضعف شديد وتقربوا إلى حماة ، وأذلهم الله تعالى ، فلم يقدموا على المسلمين قط ، وصار من المسلمين من يريد الإقدام عليهم فلم يوافقه غيره ، فجرت مناوشات صغار ، كما جرى في غزوة الخندق ، حيث قتل علي بن أبي طالب

رضي الله عنه فيها عمرو بن عبد ود العامري لما اقتحم الخندق ، هو
ونفر قليل من المشركين .

كذلك صار يتقرب بعض العدو فيكسرهم المسلمون ، مع كون
العدو المتقرب أضعاف من قد سرى إليه من المسلمين . وما من مرة
إلا وقد كان المسلمون مستظهرين عليهم . وساق المسلمون خلفهم في
آخر النوبات ، فلم يدركوهم إلا عند عبور الفرات . وبعضهم في
جزيرة فيها . فرأوا أوائل المسلمين فهربوا منهم ، وخالطوهم وأصاب
المسلمون بعضهم . وقيل : إنه غرق بعضهم .

وكان عبورهم وخلو الشام منهم في أوائل رجب (١) ، بعد أن
جرى ما بين عبور قازان أولاً وهذا العبور - رجفات ووقعات صفار ،
وعزمنا على الذهاب إلى حماة غير مرة لأجل الغزاة ، لما بلغنا أن
المسلمين يريدون غزو الذين بقوا ، وثبت بإزائهم المقدم الذي بحماة
ومن معهم من العسكر ومن أتاه من دمشق ، وعزموا على لقائهم
ونالوا أجراً عظيماً . وقد قيل : إنهم كانوا عدة كمانات ، إما ثلاثة ،
أو أربعة . فكان من المقدر أنه إذا عزم الأمر وصدق المؤمنون الله يُلقي
في قلوب عدوهم الرعب فيهربون ، لكن أصابوا من البلديات بالشمال
مثل « تيزين » و « الفوعة » و « معرة مصرين » وغيرها ما لم يكونوا
وطئوه في العام الماضي .

وقيل : إن كثيراً من تلك البلاد كان فيهم ميل إليهم بسبب
الرفض ، وأن عند بعضهم فرامين منهم ، لكن هؤلاء ظلمة ، ومن

(١) يعني من عام سبعمائة .

أَعَانَ ظَالِمًا بَلِيًّا بِهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩] .

وقد ظاهرهم على المسلمين : الذين كفروا من أهل الكتاب ، من أهل « سيس » والإفرنج . فنحن نرجو من الله أن ينزلهم من صياصيتهم وهي الحصون - ويقال للقرون : الصياصي - ويقذف في قلوبهم الرعب وقد فتح الله تلك البلاد . ونغزوهم إن شاء الله تعالى فنفتح أرض العراق وغيرها ، وتعلو كلمة الله ويظهر دينه (١) .

فهذه مقارنة جيدة تدل على علم واسع وفهم عميق لكتاب الله تعالى وواقع المسلمين وواقع أعدائهم ، كما تدل على فهم شيخ الإسلام ابن تيمية لأسباب النصر وأسباب الخذلان .

ومن هذه المقارنة وما سبق ذكره من بيان مواقف شيخ الإسلام ابن تيمية في أحداث المسلمين مع التتار يتبين لنا أثر هذا العالم الرباني في نصر المسلمين على أعدائهم وتوجيه المسلمين إلى الاعتقاد الصحيح والاستقامة في أمور الجهاد .

معركة شقحب :

سار قازان ملك التتار بجيوشه من العراق ونزل على الفرات ، وبعث أمامه قائده قطلوشاه إلى الشام في ثمانين ألف مقاتل ، وخرجت العساكر المصرية إلى الشام مع الأمراء بيبرس وطغريل وكراي ولاجين ، ودخل بيبرس ومن معه دمشق في منتصف شعبان ، ولبت يستحث السلطان محمد بن قلاوون على الخروج .

(١) فتاوى ابن تيمية ٢٨/٤٤٣ - ٤٦٦ .

وبلغ التتار تجمعٌ للمسلمين عند حماة فبعثوا إليهم طائفة كثيرة من جيش ليقتطعوهم ، فتوجه إليهم أسندمر كرجي نائب طرابلس ، وبهادر آص ، وكجكن ، وإغزلوا العادلي ، وتمر الساقى ، ومحمد بن قراسنقر ، في ألف وخمسمائة فارس بمنزلة عرض - وهي بلد من أعمال حلب - في حادي عشر شعبان على غفلة فافترقوا أربع فرق ، وقتلوهم قتالاً شديداً من نصف النهار إلى العصر حتى كسروهم وأفنوهم ، وكان التتار - فيما يقال - أربعة آلاف ، وكان هؤلاء التتار قد هجموا قبل ذلك على التركمان ، فاستنقذ هؤلاء الأمراء التركمان وحريهم وأولادهم من أيدي التتار ، وهم نحو ستة آلاف أسير ، ولم يُفقد من العسكر الإسلامي إلا الأمير أنص الجمدار المنصوري ومحمد ابن باشقرد الناصري ، وستة وخمسون من الأجناد ، وأسروا من التتار مائة وثمانين (١) .

وهكذا انتصر ألف وخمسمائة من المسلمين على أربعة آلاف من التتار ، لما صبر المسلمون وكانوا يداً واحدة على أعدائهم ، وإنما كان المسلمون يُخذلون أمام التتار لشدة فزعهم وعدم صبرهم واختلاف قلوبهم ، وكانت هذه المعركة الصغيرة بداية جيدة للقاء الكبير الذي تم بعد ذلك في شقحب ، حيث كان لهذه المعركة أثر في تحطيم معنوية التتار .

وذكر الحافظ ابن كثير أن التتار وصلوا إلى بلاد الشام ، وأن جيش حلب وحماة تقهقروا إلى حمص ، ثم خافوا أن يدهمهم التتار

(١) النجوم الزاهرة ١٥٧/٨ - ١٥٨ ، البداية والنهاية ٢٤/١٤ .

فساروا إلى دمشق وانضموا إلى جيشها في المرج ، ووصل التتار إلى حمص وبعلبك وعاثوا في تلك الأراضي فسادا ، وقلقَ الناس قلقا عظيما ، واختبط البلد لتأخر قدوم السلطان محمد بن قلاوون ببقية الجيش المصري ، وقال الناس : لا طاقة لجيش الشام مع هؤلاء المصريين بلقاء التتار لكثرتهم ، وتحدث الناس بالأراجيف ، فاجتمع الأمراء بالميدان وتحالفوا على لقاء العدو ، وشجعوا أنفسهم ، ونُودي بالبلد أن لا يرحل أحد منه فسكن الناس ، وجلس القضاة بالجامع وحلّفوا جماعة من الفقهاء والعامّة على القتال (١) .

وهذا موقف جهادي مشكور لهؤلاء الأمراء الذين ثبتوا المسلمين وشجعوهم على القتال ولم يسمعوهم لإرجاف المرجفين وكذلك قام القضاة بموقف جيد حينما حلّفوا الفقهاء والعامّة على الثبات والجهاد .

قال الحافظ ابن كثير : وتوجه الشيخ تقي الدين ابن تيمية إلى العسكر الواصل من حماة فاجتمع بهم في « القطيعة » فأعلمهم بما تحالف عليه الأمراء والناس من لقاء العدو ، فأجابوا إلى ذلك وحلفوا معهم ، وكان الشيخ تقي الدين ابن تيمية يحلف للأمراء والناس : إنكم في هذه الكرة منصورون ، فيقول له الأمراء : قل إن شاء الله ، فيقول إن شاء الله تحقيقا لاتعليقا ، وكان يتأول أشياء من كتاب الله منها قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ وَمِنْ عَاقِبِ امِّثْلِ مَا عُوِّبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ [الحج: ٦٠] (٢) .

(١) البداية والنهاية ٢٥/١٤ .

(٢) البداية والنهاية ٢٥/١٤ .

وهذا موقف جهادي رائع لشيخ الإسلام ابن تيمية ، حيث سعى لتثبيت الجيش الإسلامي وتقوية عزائم أفرادهِ ، وذلك بخروجه أولاً إلى الجيش القادم من حماة وإعلامهم بما عزم عليه المجاهدون في دمشق من الثبات الذي وثقوه بالحلف ، ثم بقيامه ثانياً بالحلف أمام الأمراء والعامة بحصول النصر للمسلمين في تلك المعركة ، وذلك راجع إلى ثقته بنصر الله تعالى حينما تتحقق عوامل النصر من المجاهدين ، وقد لاحظ في تلك المرة تحقق تلك العوامل ، كما أنه راجع إلى غزارة علمه حيث تأول قول الله تعالى ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصِرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴾ وقد بغى التتار كثيراً على المسلمين وبالغوا في العدوان عليهم .

وقال الحافظ ابن كثير في بيان حال المسلمين آنذاك في ترددهم في قتال التتار : وقد تكلم الناس في كيفية قتال هؤلاء التتار ، من أي قبيل هو ! فإنهم يظهرون الإسلام وليسوا بغاة على الإمام ، فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوه فقال الشيخ تقي الدين : هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي ومعاوية رضي الله عنهما ، ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما ، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين ، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم ، وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة ، فتفطن العلماء والناس لذلك ، وكان يقول للناس : إذا رأيتُموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلونني ، فتشجع الناس في قتال التتار وقويت قلوبهم ونياتهم ولله الحمد (١) .

(١) البداية والنهاية ٢٥ / ١٤ .

وهذا مثل من رسوخ علم ابن تيمية حيث أبان للناس انطباق صفة الخوارج على التتار الذين أظهروا الإسلام ولم يطبقوا منه إلا قليلا ، كما أن في هذا الخبر مثالا على ثقة المسلمين البالغة بابن تيمية سواء في ذلك أهل العلم أو العامة ، وبهذه الثقة التي تكونت من اتصافه بالعلم النافع والعمل الصالح استطاع أن يؤثر على المسلمين وأن يقودهم إلى الجهاد .

لقد كان لهذه الشبهة أثر في هزيمة المسلمين في معركتهم السابقة مع التتار ، حيث تخاذل المسلمون في قتالهم لكونهم يظهرون الإسلام ، وكان على أثر ذلك استيلاء التتار على بلاد الشام ومقاموا به من قتل الآمنين ونهب أموال المسلمين ، فلما قيض الله تعالى للمسلمين في ذلك الزمن عالما جليلا يكشف لهم الشبهات ويُجَلِّي لهم الحقائق ويدفعهم إلى اليقين من سلامة الاتجاه قويت معنويتهم وتوحد هدفهم وأقدموا على الجهاد بنفوس مطمئنة وعزائم قوية .

هذا وقد كان جيش مصر وصل إلى الشام بقيادة بعض الأمراء ثم وصل السلطان قبل وصول التتار إلى دمشق ففرح بذلك المسلمون في الشام ، وقد ذكر الحافظ ابن كثير أن عسكر الشام ندب شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية إلى أن يسير إلى السلطان يستحثه على السير إلى دمشق فسار إليه فحثه على المجيء إلى دمشق بعد أن كاد يرجع إلى مصر ، فجاء هو وإياه جميعا ، فسأله السلطان أن يقف معه في معركة القتال ، فقال له الشيخ : السُّنة أن يقف الرجل تحت راية قومه ، ونحن من جيش الشام لانقف إلا معهم ، وحرص السلطان على

القتال ويشره بالنصر ، وجعل يحلف بالله الذي لا إله إلا هو إنكم منصورون عليهم في هذه المرة ، فيقول له الأمراء : قل إن شاء الله ، فيقول : إن شاء الله تحقيقاً لاتعليقاً ، وأفتى الناس بالفطر مدة قتالهم ، وأفطر هو أيضاً ، وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده ليُعلمهم أن إفطارهم - ليتقوا على القتال - أفضل فيأكل الناس ، وكان يتأول في الشاميين قوله ﷺ « إنكم ملاقو العدو غداً ، والفطر أقوى لكم » فعزم عليهم في الفطر عام الفتح كما في حديث أبي سعيد الخدري (١) .

وقد كان وصول السلطان في يوم السبت ثاني شهر رمضان عام اثنين وسبعمائة ، وعند لقاء الأمراء به ورد إليهم الخبر بوصول التتار فلبسوا السلاح وانفقوا على قتال التتار بشقح تحت جبل غباغب ، وعند وصولهم إلى هذا المكان صفوا جيشهم ، فصف السلطان محمد ابن قلاوون في القلب وبجانبه الخليفة المستكفي بالله ، ومشى السلطان والخليفة ومعهما القراء يتلون القرآن ويحثون على الجهاد ويشوقون إلى الجنة ، وصار الخليفة يقول : يامجاهدون لاتنظروا لسلطانكم وقاتلوا عن دين نبيكم ﷺ وعن حريمكم ، والناس في بكاء شديد .

ورحفت كتائب التتار كقطع الليل ، وذلك بعد الظهر من يوم السبت ثاني رمضان المذكور ، وحمل قطلوشاه قائد التتار على ميمنة الجيش الإسلامي فثبتوا لهم ، وقُتل في ذلك الهجوم عدد من أمراء

(١) البداية والنهاية ٢٧/١٤ .

المسلمين ونحو الألف من فرسانهم فلما وقع ذلك أدركهم الأمراء من القلب والميسرة وصاح سلاّر : هلك والله أهل الإسلام ، وصرخ في بيبرس والمماليك البرجية فأتوه دفعة واحدة فأخذهم وصدّهم بهم العدو ، وقصد مُقدّم التتار قطلوشاه ، وتقدم عن الميمنة حتى أخذت راحة .

وأبلى سلاّر في ذلك اليوم وبيبرس بلاء حسنا ، وكانا المقدّمان في أمراء مصر ، فلما رأى باقي الأمراء ذلك منهم ألّقوا نفوسهم للموت ، واقتحموا القتال وكان لسلاّر وبيبرس في ذلك اليوم اليدُ البيضاء على المسلمين ، رحمهما الله تعالى ، واستمروا في القتال حتى كشفوا التتار عن المسلمين .

وجاءت طائفة من التتار لنجدة قطلوشاه ، ووقفوا في وجه سلاّر وبيبرس ومن معهما فخرج من عسكر السلطان عدد من القادة والمماليك السلطانية وأردفوا سلاّر وبيبرس وقاتلوا أشد القتال حتى أراحوهم عن مواقفهم ، واستمر القتال بين المسلمين والتتار إلى أن وقف كل من الطائفتين عن القتال في المساء .

ومال قطلوشاه بمن معه إلى جبل قريب منه ، وصعد عليه وفي نفسه أنه انتصر وأن بولاي في أثر المنهزمين ، فلما صعد الجبل رأى السهل والوعر كلّ عساكر ، والميسرة السلطانية ثابتةً وأعلامها تخفق ، فبهتَ وتحير ، واستمر بموضعه حتى كمل معه جمعه .

أما القائد الآخر بولاي فإنه انهزم ومعه عشرون ألفا من التتار وفروا هاربين .

وبات السلطان وسائر عساكره على ظهور الخيل ، وتلاحق بهم
المنهزمون شيئاً بعد شيء على صوت الطبول السلطانية ، وأحاط عسكر
السلطان بالجبل الذي بات عليه التار ، وصار سلاز وييرس وقبجق
والأكابر في طول الليل دائرين على الأمراء والأجناد يوصونهم
ويرتبونهم ويؤكدون عليهم في التيقظ ، ووقف كل أمير في مصافه
وثبتوا على ذلك حتى ارتفعت الشمس .

وشرع قطلوشاه في ترتيب من معه ، ونزلوا مشاة وفرساناً وقاتلوا
العساكر ، فبرزت الممالك السلطانية بمقدميها إلى قطلوشاه وجوبان ،
وعملوا في قتالهم عملاً عظيماً ، فصاروا تارة يرمونهم بالسهام وتارة
يواجهونهم بالرماح ، واشتغل الأمراء أيضاً بقتال من في جهتهم
يتناوبون القتال أميراً بعد أمير ، وألحّت الممالك السلطانية في القتال
وأظهروا في ذلك اليوم من الشجاعة والفروسية مالا يوصف ، حتى إن
بعضهم قُتل تحته الثلاثة من الخيل .

وما زال القتال دائراً حتى انتصف نهار الأحد ، فصعد قطلوشاه
الجبل بجيشه وقد اشتد عطشهم ، واتفق أن بعض من كان أسره التار
هرب ونزل إلى السلطان وعرفه أن التار قد أجمعوا على النزول في
السحر لمصادمة العساكر السلطانية وأنهم في شدة من العطش ،
فاقتضى الرأي أن يفرج لهم عند نزولهم ويركب الجيش أفقيتهم ، فلما
باتوا على ذلك وأصبحوا نهار الإثنين ركب التار في الرابعة من النهار
ونزلوا من الجبل فلم يتعرض لهم أحد ، وساروا إلى النهر فاقتحموه ،
فعند ذلك ركبهم بلاء الله من المسلمين وأيدهم الله تعالى بنصره حتى

حصدوا رؤوس التتار عن أبدانهم ووضعوا فيهم السيوف ومروا في
أثرهم قتلاً وأسراً إلى وقت العصر .

وعاد المجاهدون إلى السلطان وعرفوه بهذا النصر العظيم وبات
السلطان لَيْلَتَهُ و أصبح يَوْمُ الثلاثاء وقد خرج إليه أهل دمشق ، فسار
إليها في عالم عظيم لا يحصيهم إلا الله تعالى وهم يضجُّون بالدعاء
والهناء والشكر لله تعالى على هذه المنَّة .

أما المنهزمون من التتار فإن كثيراً منهم قُتلوا على يد الفرق التي
تبعَتْهم من الجيش وكذلك من رجال البادية وعامة المسلمين (١) .

وهكذا تم هذا الانتصار الحاسم للمسلمين على التتار بعد عناء
شديد وجهاد مرير ، ولم يتجرأ التتار بعدها على حرب دولة المسلمين
في الشام ومصر ، وكان وقع الهزيمة شديداً على ملك التتار قازان
حيث كان قد انتخب لتلك المعركة أفضل رجاله .

* * *

(١) النجوم الزاهرة ٨/ ١٥٧ - ١٦٣ .

فهرس الجزأين الخامس عشر والسادس عشر

الموضوع	الصفحة
الإمام الزاهد والخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز	٧
- ارهاصات بين يدي خلافته	٩
- فراسة صادقة من جده عمر رضي الله عنه	٩
- رؤيا صالحة من جده عمر رضي الله عنه	١١
- مولده ونشأته	١٢
- رؤيا صادقة وعزم على الاستقامة والعدل	١٥
- من مواقفه في إمارته على الحجاز	١٧
- استشارته فقهاء المدينة	١٧
- إجلاله سعيد بن المسيب	١٨
- استخلافه وموقف لرجاء بن حيوة	١٩
- تقديره أهل الفضل	٢١
- تقديره ولد قتادة بن النعمان	٢١
- تقديره زياد مولى ابن عياش	٢٣
- إكرامه من ينتسبون إلى علي رضي الله عنه	٢٥
- نماذج من جرأته في الحق وحزمه وحكمته	٢٦
- إنكاره على الوليد بن عبد الملك في الحكم بالهوى	٢٦
- مشورته على سليمان بن عبد الملك في الحكم	٢٨
- إنكاره على سليمان بن عبد الملك في الإنفاق	٢٩
- إنكاره على سليمان في تحكيمه كتاب أبيه	٣٠

٣١	- عزله ولاية السوء
٣٣	- قوته في الرجوع إلى الحق
٣٤	- تلذذه بتنفيذ الحق
٣٥	- بيانه مهمة الحاكم
٣٨	- من أخباره في العدل والاهتمام بالمسئولية
٣٨	- رغبته في التآسي بجده عمر رضي الله عنه
٣٩	- تذكيره بالحساب الأخروي
٤٠	- وعظه سليمان بن عبد الملك في رد المظالم
٤٠	- اتخاذه رقباء على نفسه ليستقيم على الحق
٤٢	- ماقام به من رد المظالم
٤٢	- بدؤه بنفسه وأهل بيته
٤٣	- من كتاباته في رد المظالم
٤٤	- حرصه على الإسراع في رد المظالم
٤٥	- مثل من صرامته ومالقي من عشيرته
٤٦	- مساواته بين عشيرته وسائر المسلمين
٤٧	- خبر روح بن الوليد وخصمائه
٤٨	- إنصافه الرجل الحمصي من العباس بن الوليد
٤٩	- نزع إقطاع أحد الرجال
٥١	- مثل من حكمته وموقف لابنه عبد الملك
٥٢	- حوار مع هشام بن عبد الملك وسعيد بن خالد
٥٤	- خطبته أمام الغرباء
٥٦	- رده منحة عنبة بن سعيد

- إنصافه أحد الرعية من عامله عروة ٥٩
- إنصافه أهل سمرقند ٦٠
- كتابه إلى عمر بن الوليد ٦٢
- جوابه لعنسة حينما سأله ٦٥
- مثالن من حكمته وحزمه ٦٧
- إنصافه رجلا من عدي بن أرطاة ٦٨
- خبره مع فرتونة مولاة ذي أصبح ٧٠
- إنصافه رجلا اشتكى من أحد أقاربه ٧٢
- تسويته بين الناس في مجلس الحكم ٧٢
- أمره بوضع الضرائب ٧٣
- مكافأته من رفع إليه مظلمة ٧٥
- اهتمامه بفداء الأسرى والقضاء عن الغارمين ٧٦
- خبره مع الأسير الأعمى ٧٨
- اهتمامه بأمور الرعية ٨١
- مثل من اختياره الولاة ٨١
- مثل من احتياطه في اختيار الولاة ٨٣
- حرصه على تولية الأكفاء ٨٤
- مثل من نباهة عمر وفطنته ٨٥
- موقفه في رفع الظلم عن زيد بن حسن ٨٨
- شكوى عمته باسم بني أمية ٩٠
- تأديبه لمن سخر أهل الذمة ٩١
- مثل من بركة الحكم بالعدل ٩٢

الموضوع	الصفحة
- إنصافه الأعراب من بعض بني أميه	٩٣
- وصيته عُمًا له بالتقوى والعدل	٩٤
- خبره مع المرأة التي فرض لبناتها	٩٩
- إنصافه الذميين من أهل نجران	١٠٣
- إنصافه الذميين من أهل قبرص	١٠٥
- إنصافه أحد المظلومين من اليمن	١٠٦
- سؤال عطاء عن أحوال عمر بن عبد العزيز	١٠٦
- خبره مع الخوارج	١٠٨
- جهوده في الدعوة والإصلاح	١١٤
- من توجيهاته في آداب الصحبة	١١٤
- من تذكيره بالآخرة	١١٨
- من جهوده في تصحيح المفاهيم الخاطئة	١١٩
- إنكاره العصبية القبلية	١٢١
- اهتمامه بشكر النعمة	١٢٤
- اهتمامه بتعليم أهل البادية	١٢٥
- اهتمامه بالدعوة إلى الإسلام	١٢٥
- اهتمامه بإصلاح المجتمع	١٢٨
- إباحته المراعي العامة للأمة	١٣١
- توجيهه إلى الإمساك عما جرى بين الصحابة	١٣٢
- إبطاله سب علي على المنابر	١٣٣
- اهتمامه بإلغاء الضرائب والجزية عن أسلم	١٣٣
- إحيائه لسنة العطاء	١٣٦

- ١٣٨ - إغناؤه المحتاجين عن المسألة
- ١٣٩ - اهتمامه بدفع المهور من بيت المال
- ١٣٩ - جهوده في التقريب بين طبقات المجتمع
- ١٤٠ - تجرده من العصبية وإكرامه أهل البيت
- ١٤٢ - اهتمامه بالإصلاح بين الناس
- ١٤٣ - نماذج من مواعظه وحكمه
- ١٤٥ - اهتمامه بسد الذرائع الموصلة إلى الشرك
- ١٤٦ - كتابه لبعض عماله في التزهيد في الدنيا
- ١٤٨ - وصيته للقضاة
- ١٤٩ - حثه على التقوى
- ١٥٠ - كتابه إلى أهل الموسم بالبراءة من الظلم
- ١٥٢ - من خطبه في الزهد
- ١٥٣ - موعظة له في التوكل والعفة
- ١٥٣ - خطبة له وجيزه بليغة
- ١٥٥ - آخر خطبة خطبها
- ١٥٦ - فهمه لشمول العبادة
- ١٥٧ - تعزيتة البليغة لأهل صديقه
- ١٥٨ - مثل من صبره ويقينه
- ١٥٩ - جوابه على من قال أبقاك الله
- ١٦٠ - من مواعظه البليغة
- ١٦١ - موعظته لمن سأله شيئاً من الدنيا
- ١٦٢ - نماذج من أدبه وحكمته

- تأثره من شعر الزهد واستشهاد به ١٦٤
- إيمانه بالقضاء والقدر ١٦٨
- موقفه من الشعراء المداحين ١٦٨
- اهتمامه بالجهاد في سبيل الله تعالى ١٧٤
- اهتمامه بمكارم الأخلاق ١٧٦
- نفوره من الاتهام بالكذب ١٧٦
- من أمثلة تواضعه ١٧٧
- جوابه لمن اتهمه بالكبر ١٧٩
- مثل من حلمه على من جهل عليه ١٨٠
- مثل آخر من حلمه ١٨٠
- عفوه عن الذي شجه في وجهه ١٨١
- مثل من عفوه عند الغضب ١٨١
- مثل من رحمته بالمجاهدين ١٨٢
- رحمته بالأسرى ١٨٣
- مثل من رحمته بالأيتام ١٨٣
- مثل من رحمته بالغللمان ١٨٤
- رحمته بجارية له ١٨٤
- مثل من رحمته بأهل الذمة ١٨٥
- مثل من رحمته بالحيوان ١٨٦
- مواقفه في الزهد والورع والحشية ١٨٧
- خبر بدء إنابته ١٨٧
- خبره مع سليمان بن عبد الملك بمناسبة البرق والرعد ١٨٧

- ١٨٧ - خروجه للترهة والعبرة في ذلك ..
- ١٨٩ - خبره مع الغراب ومافيه من العبر
- ١٩٠ - خشيته من العذاب بالريح
- ١٩٠ - خشيته من ارتكاب السيئات بمكة
- ١٩١ - زهده في مظاهر الخلافة
- ١٩٤ - زهده في مخصصات الخلافة
- ١٩٥ - مثل من طموحه نحو المعالي
- ١٩٥ - ورعه عما حُمِّل على دواب البريد
- ١٩٦ - رده أحد أملاكه من الإقطاع
- ١٩٨ - مقدار ماردته من ماله لبيت المال
- ١٩٨ - مثل من تورعه عن مال المسلمين
- ١٩٩ - استجابة دعائه في ابنه الصغير
- ٢٠١ - أمثلة من تحريه في ملكية الجواري
- ٢٠٢ - تورعه عن مزارع خيبر
- ٢٠٣ - تورعه عن حلي زوجته
- ٢٠٤ - تورعه عن صرف شيء من المال العام في الحج
- ٢٠٥ - تورعه عن دماء الناس وأموالهم
- ٢٠٧ - نماذج من تورعه عن المال العام
- ٢١١ - خوفه من الرياء والسمعة
- ٢١٢ - مثل من حرصه على إخفاء عمله الصالح
- ٢١٣ - تورعه عن البناء
- ٢١٣ - تورعه عن قبول الهدية

الموضوع

الصفحة

- مثل آخر من رده الهدية ٢١٤
- مثل من أجلاله رسول الله ﷺ ٢١٥
- أمره والي المدينة بالاقتصاد في الوقود والورق ٢١٥
- وعظه مسلمة في الاقتصاد في المأكل ٢١٧
- حواراه مع عمته في رد مخصصاتها ٢١٧
- رفضه أن يوصي لأولاده بشيء ٢٢٠
- وصيته لمسلمة في التحري في الأموال ٢٢٢
- اعتباره بزهد النبي ﷺ ٢٢٣
- من أمثلة زهده ٢٢٣
- تربيته أولاده على التقشف والزهد ٢٢٤
- موعظة المنصور بسيرة عمر المالية ٢٢٤
- دقة موازنته بين الدنيا والآخرة ٢٢٦
- أمثلة من زهده وإصلاحه ٢٢٦
- مثل من خشيته وموقف لأبي قلابة ٢٢٧
- نهاية عمر بن عبد العزيز وما في ذلك من مواقف ٢٢٨
- سؤال الفقهاء عن حال عمر في بيته ٢٣٠
- من ثناء العلماء على عمر ٢٣١
- ثناء ملك الروم عليه ٢٣١
- الخوارج ومواقف أئمة المسلمين وقادتهم منهم ٢٣٩
- الخوارج وماورد فيهم من أحاديث ٢٤٢
- مواقف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من الخوارج ٢٤٥
- بعث ابن عباس لمحاورتهم ٢٥٢

الموضوع	الصفحة
- جريمتهم بقتل المسلمين الآمنين	٢٥٤
- خبر ذي الشُّدَّةِ ومعجزة لرسول الله ﷺ	٢٥٩
- معجزة أخرى لرسول الله ﷺ	٢٦٣
- حكم علي رضي الله عنه عليهم	٢٦٤
- مثل من ورع علي رضي الله عنه	٢٦٤
- الخوارج في عهد بني أمية	٢٧٠
- ثورة فروة الأشجعي وأصحابه	٢٧٠
- ثورة المستورد التيمي وأصحابه	٢٧١
- خبر الخوارج مع ابن الزبير رضي الله عنهما	٢٧٥
- تفرق الخوارج إلى فرق	٢٧٧
- مواقف أهل البصرة في قتال الأزارقة	٢٧٨
- المهلب بن أبي صفرة والأزارقة	٢٧٩
- مثل من فتنة الخوارج في المغرب	٢٨٢
- مواقف وعبر في جهاد المسلمين مع الصليبيين	٢٨٧
- بداية الغزو الصليبي وجهاد بعض أمراء المسلمين	٢٩١
- حال المسلمين آنذاك	٢٩١
- سقوط بيت المقدس بيد الصليبيين	٢٩٢
- جهاد سقمان وجكرمش مع الصليبيين	٢٩٥
- جهاد طغتكين مع الصليبيين	٢٩٧
- جهاد عماد الدين زنكي	٢٩٩
- معركته مع الصليبيين حول حمص	٢٩٩
- فتح حصن بعرين	٣٠٠

الموضوع	الصفحة
- مواجهة بينه وبين الصليبيين والروم	٣٠١
- فتح مدينة الرها	٣٠٢
- جهاد نور الدين محمود مع الصليبيين	٣٠٤
- معركة يغرى	٣٠٥
- استيلاؤه على حصن عزاز وماحوله	٣٠٥
- معركة دلوك وفتحها	٣٠٦
- فتح قلعة حارم	٣٠٦
- فتح قلعة بانياس	٣١٠
- فتح حصن المنيطرة وصافيثا وعريمة	٣١٢
- القضاء على حملة صليبية	٣١٢
- فتح حصن الكرك ولقاء مع الصليبيين	٣١٣
- حملة تأديبية للصليبيين	٣١٤
- مواقف نور الدين الأخلاقية	٣١٤
- جهاد أسد الدين شيركوه	٣٢٥
- معركة البابين	٣٢٧
- جهاد صلاح الدين الأيوبي	٣٣٧
- غزوه بلاد الفرنج وفتح أيلة	٣٣٧
- موقف لأهل الإسكندرية في صد حملة صليبية	٣٣٨
- موقعة حطين	٣٤١
- يوم المعركة	٣٤٢
- فتح بيت المقدس	٣٤٩
- فتح قلعة برزية	٣٥٥

الموضوع	الصفحة
- فتح حصن الشعر	٣٥٩
- حصار مدينة صور	٣٦٠
- استنجد صليبي الشام بأهل أوروبا	٣٦١
- وصول الصليبيين إلى عكا	٣٦٣
- معركة الأصطول	٣٦٥
- ابتكار علمي حربي موفق	٣٦٧
- استيلاء الصليبيين على عكا	٣٦٩
- مثل من رحمة صلاح الدين	٣٧٠
- جهاد الظاهر بيبرس ضد الصليبيين	٣٧٢
- فتح مدينة يافا	٣٧٤
- فتح أنطاكية	٣٧٤
- جهاد السلطان قلاوون وابنه خليل	٣٧٦
- فتح حصن المرقب	٣٧٦
- فتح طرابلس	٣٧٦
- فتح عكا	٣٧٧
- فتح صور	٣٧٨
- نهاية الصليبيين في الشام	٣٧٩
- مواقف وعبر في جهاد المسلمين مع التتار	٣٨١
- خروج التتار وسبب ذلك	٣٨٣
- مواقف السلطان مظفر الدين قُطُز	٣٨٥
- معركة عين جالوت	٣٨٥
- مواقف جهادية في هذه المعركة	٣٨٦

الموضوع

الصفحة

٣٩٠	- رؤيا صادقة تحمل البشارة بالنصر
٣٩٤	- مواقف السلطان الظاهر بيبرس
٣٩٦	- معركة البيرة
٣٩٨	- معركة أبلستين
٤٠٠	- مواقف السلطان قلاوون
٤٠٠	- معركة حول حمص
٤٠٥	- دخول التتار في الإسلام
٤٠٨	- مواقف السلطان محمد بن قلاوون
٤٠٩	- مواقف لشيخ الإسلام ابن تيمية
٤١٣	- موقف جهادي لنائب القلعة
٤١٧	- مواقف أخرى لابن تيمية وغيره
٤٢١	- مقارنة بين الأحزاب والتتار
٤٣٢	- معركة شقحب